تزكية النَّفس

في الكتاب، والسُّنَّة، وحياة السَّلف

العلامة الشَّيخ
محمد أديب كيلاني
رحمه الله تعالى
(١٩٣٧م – ١٩٨٢م)

اعتنى بها
عبد السلام محمد أديب كيلاني

إهداء المعتني بالرِّسالة

أهدي ما أَذِنَ الله تعالى به من إخراج هذه الرِّسالة لكاتبها سيِّدي الوالد الشَّيخ العلامة محمد أديب كيلاني قدَّس الله تعالى سرَّه، ورزقنا وإيَّاه الجنَّة بغير حساب، وجمعنا به في الفردوس الأعلى مع الحبيب المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم.

اللهم آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

(تنويه بصاحب الرِّسالة)

- هي كلمات معدودة ترصد سنوات مع صحبةِ من هم قليلون في المجتمع عدداً، بيد أنَّ لهم آثاراً غذَّت جيلاً من الشَّباب الضائع، وأنا واحد منهم!
- جيل لا يدري الحكمة من وجوده، قد تلاعبت به الأفكار التَّائهة التي راجت يومها بفعل فاعل، ولم يعد له من الحياة - وهذا كان لأَمْثَلِنَا طريقة - سوى الزَّوجة، والمزرعة، والرَّاتب الذي يروي نزواته، تاه عن القِبلة هي "تحقيق العبودية" لله، والالتزام بالشَّريعة التي تحقِّق لكلِّ إنسان الحياة الأرقى.

● بصمة اللقاء الأول مع صاحب رسالة تزكية النَّفس:

- سمع عبد الكريم - كاتب هذه الكلمات - بوجود شيخ يتحدَّث عن الله حديثاً آسراً، ولا أكتم سرَّاً إذا قلت: إن مضمون الحديث أخذ من نفسي كلَّ مأخذ، علماً أني كنت شارداً مع الشَّاردين عن هذا المورد، إنَّها الرُّوح التي عرفت الله تعالى يوم قال للأرواح: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}، فكان الإقرار، إذ { قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا}، فما أعظم السُّؤال، وما أعذب الإجابة! ولا يمحى هذا الخطاب مهما عدت عليه غبرات الدُّنيا!
- توجَّهتُ مساءً إلى دار "الفقراء" حيث الشَّيخ يدرِّس، واجتمعت فيَّ معانٍ تزاحمت في صدري بعث بها إليّ: حي الكيلانية حيث دار الفقراء، والدَّرج الطويل الذي يوصل إلى "الدَّار"، والقاعة الكبيرة التي فيها الدَّرس، والتي فرشت فرشاً متواضعاً، وإلى جانبها غرفة متوسِّطة الحجم، وباحة سماوية ليست بالكبيرة!
- ومع هدأة اللَّيل من بعد العشاء يبدأ الدَّرس، وكأنَّه يحلُّ محلَّ صخب الحياة، وضجيجها في النَّهار!

● تفصيل مقتضب عن هذه العناصر المثير اجتماعها إطاراً لحديث طريٍّ المبنى، عميق المعنى:

- الحيُّ الذي احتضن دار الفقراء: حيٌّ خاشع، تفوح منه عراقة التَّاريخ، فتسري في النُّفوس المرهقة سريان السَّكينة الغامر، ولأمر ما اختير الحيُّ وعاءً للدَّار!
- في مدخل الدَّار درج طويل يصعد بك إلى باحة الدَّار يمهِّد فيك نعمة "الارتقاء" الفكري والرُّوحي، ولا يغفل عن التَّنبيه إلى بذل الجهد لنيل هذا الارتقاء.
- والعجب من التَّسمية التي يبهر معناها أيَّما إبهار، ويبدو لمن لا يدري عمقها أنَّها دار لمن دقَّه الفقر بمطرقته، وبالتَّسمية يستجدي العطاء!! فإذا ما عرف أنَّ من يأتي إلى الدَّار هو من ذوي الكفاءة الدُّنيويَّة، والعلميَّة، والوظائف المعتبرة، والثَّروة التي تزيد عن الكفاية، ويعطى منها لذوي الحاجة، وعليه؛ فإنَّ التَّسمية ترجع إلى عمق صلة روَّاد الدَّار بالله الغني، فهم يؤكِّدون أنَّهم فقراء إلى الله تعالى، تذوُّقاً لقول الله في النَّاس: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}،

وإنِّما غِناهم غنى بالله تعالى، ويرون أنَّ الفقير هو من قطع صلته بالله الغني الحميد.
- باب الدَّار يُفضي إلى باحتها التي وضع في صدرها مقعداً خشبيَّاً طويلاً، وفي الجانب "الأيمن" من الباحة تقع القاعة الكبيرة التي يقام فيها الذِّكر كلَّ ليلة من بعد أداء صلاة المغرب، والأوراد التي التزم بها الحضور، وعلى جانب من القاعة كانت غرف صغيرة يصدح منها أصوات الذَّاكرين للاسم المفرد "الله"، فتغرق القاعة بجوٍّ إيماني يزجُّ بالقادم إلى الدَّار أجواء ملائكيَّة زجَّاً شاء أم أبى.
- تنتهي الحضرة التي تبدأ بدعوة آسرة من مُعمّر في الدَّار يقول فيها: تعالوا بنا نَصْطَلِح ... فباب الرِّضا قد فُتِح.
- بعد تلاوة من الآيات يبدأ الشَّيخ صاحب الرِّسالة بالحديث عن الله، وأسمائه، وصفاته، ووحدة الأفعال، وعَالَمِ الأسباب، وعن قلب المؤمن، والتَّخلية والتَّحلية، والسَّير والسُّلوك، وهذا الحديث بمعانيه العالية وبساطة مفرداته لا يستأذن إلى القلوب، بل لا يرى المستمع إليه إلا وقد تفتَّحت معانيه في قلبه، بعد أن استحوذ على مكانة فيه، وكان كلٌّ يأخذ منه بحسب استعداده.
- هي لمحة من ليلة من ليالي دار الفقراء، تُجلِّي لنا عمق الرِّسالة التي تولَّى ولد الشَّيخ الدُّكتور عبد السلام - حفظه الله تعالى، وأمدَّه بمدده - طباعتها رجاء أن ينتفع القرَّاء بها كما انتفع من عاصر الشَّيخ - رحمه الله تعالى - بحديثه، ونهلوا منه حال حياته، والكلام صفة المتكلِّم، وفيه سرُّه!

عبد الكريم تتَّان

بسم الله الرحمن الرحيم

(مقدِّمة المعتني بالرِّسالة)

الحمد لله الواحد المنَّان، ذي الفضل والإحسان، وَهَبَنَا من العطايا ما لا يحصى على مرِّ الأزمان، والصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ العدنان، صاحب القلب الأصفى؛ طاهر الجَنَان، من زكَّاه ربُّه فنال رتبة تَقْصُرُ عنها الأذهان، الذي أرشدنا لطريق معرفة الله تعالى بالدَّليل والبرهان.

وبعد ... فهذه رسالة طيِّبة مباركة في تعريف السَّالكين طريق الوصول إلى الله تعالى من باب تزكية النَّفس، سار فيها سيِّدي الوالد – رحمه الله تعالى – سيراً حثيثاً نيِّراً من البدء وحتى الانتهاء، فأبان وأوضح المعاني والغوامض بما ييسر لمريد الحقِّ أن ينهج في معالم العرفان، ولذا؛ فإنَّ النَّاظر في الرِّسالة يجد معانيها متسلسلة مرتَّبة حسب مدارج السُّلوك، بما يرفعه مراتب متعاقبة يتعرَّف من خلالها على كيفيَّة تزكية نفسه، ليصل إلى بصيرة تفتح عينها على شمس المعرفة التي مداها في حديث الحبيب عليه الصَّلاة والسَّلام: "أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك".

وكم عزَّ هذا العلم في هذا الزَّمان، واندرس الدَّاعون إليه على منهاج منضبط أساسه الكتاب والسُّنَّة، خالصٍ من الشَّوائب العَقَدِيَّة التي تشوِّش على السَّالك دربه، مبيِّنٌ لكلِّ راغب بما يناسب سيره، معالجٌ لمراكز المعرفة من نفس وقلب وروح بقدرها وحاجتها.

وقد جاءت هذه الرِّسالة مصادقاً لقول ابن القيِّم رحمه الله تعالى: "ففي القلب شعث؛ لا يلمُّه إلا الإقبال على الله تعالى، وفيه وحشة؛ لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حُزْنٌ؛ لا يذهبه إلا السُّرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق؛ لا يُسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه".

وإذا كان قضاء الله تعالى وقدره مَضَيَا في أن يرحل سيِّدي الوالد – رحمه الله تعالى – حينما كنت في السَّادسة من عمري، فقد أكرمني الله تعالى بأمٍّ – رحمها الله تعالى – كانت مصدر بِرٍّ بزوجها الشَّيخ، حتى نقلت حاله وقاله كما لو أنَّني أراه، ولقد أكرمني الله تعالى بثقات قالوا عن سيِّدي الوالد:

"كان يأخذ الجالسين أخذاً كليَّاً، حتى كأنَّهم جسد واحد، فله من النُّورانيَّة والرُّوحانيَّة ما جعله مهاباً في القلوب محبَّباً إليها". "كان كلُّه لله تعالى، وعليه من النُّور والأنس ما يجعلك تسعد بإطالة النَّظر إليه". "كُنَّا ننظر إليه فيقوى إيماننا أيَّاماً". "كُنَّا نراهُ من الأولياء". "كان والدك رجلاً لطيفاً".

والحمد لله تعالى الذي هيَّأ لي الوقوف على هذه الرِّسالة، والتي هي عبارة عن رسالة جامعيَّة قدِّمت لنيل الإجازة في الشَّريعة الإسلاميَّة في كليَّة الشَّريعة في

جامعة دمشق، التي تخرَّج منها وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وذلك حسبما سمعت وعرفت ممن سألتهم عن حقيقة هذه الرِّسالة، وقد تمَّ تسميتها: "تزكية النَّفس في الكتاب والسُّنَّة وحياة السَّلف" استقراء من مضمون الرِّسالة، حيث إنني أتممت طباعتها ومراجعتها دون أن أقف على عنوان لها.

وقد بذلت جهدي في فهم خطِّ الآلة الكاتبة التي كُتبت بها، وقد أعياني كثير من الكلمات والعبارات عن إدراك صياغتها أو معانيها بسبب سوء الطِّباعة، وعدم وضوح الصُّورة التي وقفت عليها من نسخة وحيدة للرِّسالة، وقد كان عملي فيها أن أحلت الآيات لمواضعها في القرآن – وإن كان سيِّدي الوالد قد فعل جُلّ ذلك –، ومن ثمَّ تخريج الأحاديث بشكل عامٍّ دون حكم عليها، وبذلت كلَّ ممكن لدي في إحالة الأقوال لأصحابها، وأيُّ تعليق أو تعريف في الهامش فإنَّه من إضافتي دون علاقة لسيِّدي الوالد – رحمه الله تعالى – به، فما كان منه صواباً فمن الله تعالى وحده.

وأضفت قائمة بالمراجع ثم الفهرس، وسوف يلاحظ المطالع أنَّ هناك تكراراً في العناوين، ولكن مع تكرارها فإنَّ المعاني التي أدرجها سيِّدي الوالد – رحمه الله تعالى - عند كلِّ عنوان كانت مختلفة عن غيرها، وفيها من الفوائد ما لا يغني عنها عنوان سابق أو لاحق.

ولا يفوتني أن أتوجَّه بالشُّكر والتَّقدير والثَّناء لسِّيدي الشَّيخ عبد الكريم تتَّان – حفظه الله تعالى – على ما أفادني به من توجيه وبيان، ولا أنسى شكر الدكتور مصطفى أحمد تتَّان – حفظه الله تعالى – الذي استعرض معي الرِّسالة مراجعة بعد طباعتها، فلهم ولكلِّ من ساهم بخير في الرِّسالة أسأل الله تعالى التَّوفيق والسَّداد.

ربِّ اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات.

عبد السلام كيلاني
٥/رمضان/ ١٤٤٢هـ

- هذا الإصدار؛ هو الإصدار الأوَّل لهذه الرِّسالة: رمضان - ١٤٤٢هـ، أبريل – ٢٠٢١م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء[١]

إليكِ أيَّتها الرُّوح المقدَّسة[٢] ... والبصيرة النَّافذة
إليكِ أيَّتها الأخلاق المتحرِّكة ... النَّاطقة السَّاكتة
إليكِ أيَّتها العبديَّة المُفردة[٣] ... العارفة المُعرِّفة
إليكَ يا إنسان عين الزَّمان ... وبهجةَ عينِ الإنسان[٤]
إليكَ يا شيخ الأشياخ ...وسيِّد السَّادات ... ومربِّيَ المُربِّين
إليكَ يا من أخرجت آلاف النُّفوس من أَدْرَانِ[٥] الشَّهوات إلى بحار الشُّهود[٦]
إليكَ يا مُخْرِجَ أهلِ الإطلاق[٧] من حُجُبِ الحسّ
إليكَ يا من لحظُك الإحسان ... وصمُتك الإيمان ... وحركتُك الإسلام
إليكَ يا خادم السُّنَّة ... ومظهر الوِراثة ومجلى الأُسوة
سيِّدي وشيخ أستاذي في السَّير إلى الله تعالى
محمَّد الهاشميِّ التّلمسانيّ[٨]
أقدِّم هذه الرِّسالة المتواضعة هديَّة لروحك المطهَّرة، وأسأل الله تعالى أن يقبلها وينفع بها

آمين

١- حينما يُهدي الخبير بحال المُهدى؛ يكون الإهداء نابعاً من القلب والرُّوح وكلِّ ذرَّات المحبَّة، فجاء إهداء سيِّدي الوالد – رحمه الله تعالى – في هذه الكلمات للشَّيخ العارف بالله تعالى محمد الهاشمي – رحمه الله تعالى – ببيان الصِّفات التي يراها المُهدي، ولعلَّ من يقرأ الإهداء يجد نفسه أمام شيخ تفرَّد بصفات عن أهل زمانه، ونسلِّم للمُهدي في رؤيته، وما ينبغي أن ينكرها من لم يبلغ ما بلغ المُهدي من الشَّيخ؛ علماً، وذوقاً، وسلوكاً، ومن لم يبلغ أيَّ مقام من مقامات السُّلوك يسلِّم للذي بلغه، ويسعى لذلك.

٢- أي المطهَّرة المباركة.

٣- التَّحقق بخالص العبوديَّة لله تعالى التي هي ثمرة لشهود عظمة المعبود، وقد تفرَّد الشيخ بهذا التَّفرُّد بين أقران زمانه.

٤- لعلها إشارة إلى أنَّ الشَّيخ ينظر بالله تعالى النَّظر الذي هو نقلة إلى مقام الإحسان.

٥- الدَّرَنُ: الوسخ.

٦- المقصود بالشُّهود: مقام الإحسان الذي ذَكَرَهُ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك".

٧- المقصود بالإطلاق: عالم الإطلاق؛ الذي هو عالم معرفة الله سبحانه وتعالى، بحيث تتخلّص النَّفس عن تعلُّقاتها الدُّنيويَّة وتتعلَّق بالله تعالى شوقاً ومحبَّة ومعرفة.

٨- هو الشَّيخ العلامَّة محمَّد الهاشميّ التِّلمسانيِّ الجزائريّ أصلاً، الدِّمشقي سكناً وإقامة، ولد عام ١٢٩٨هـ، مالكي المذهب، من مؤلفاته: مفتاح الجنَّة في العقيدة، وشرح نظم عقيدة أهل السُّنَّة وغيرها، توفِّي عام ١٣٨١هـ، ودفن في دمشق.

(شُكْرٌ)

أمَّا العقل الذي عرَّفني كيف أبحث، وعلَّمني كيف أنتقد ساعة يكون النَّقد لا بدَّ منه.

وأمَّا الرُّوح التي تعطيك النُّور ممتزجاً بثاقب الفكر فَتَعُبُّ من وابل الحقِّ ما كان عندك استعداد.

إلى هذا العقل وتلك الرُّوح الدُّكتور/ أمين المصري[1] أقدِّم خالص شكري وجميل ثنائي وكامل تقديري.

أديب

١- العَّلامة الدُّكتور/ محمَّد أمين المصري، ولد في دمشق سنة ١٩١٤م، وحصل على الشَّهادة الجامعية في الأزهر، وحصل على الدُّكتوراه عام ١٩٥٩م، من بريطانيا، ثمَّ درَّس في كلِّيَّة الشَّريعة في مكَّة المكرَّمة، ودفن فيها عام ١٩٧٧م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله وآله.

هذه رسالة تبحث عن شيء خاض فيه النَّاس كثيراً، وتضاربت فيه آراؤهم، وإنِّي إن لم أكن أحسنتُ في العرض وأوفيت فيه الغاية في الدِّقة والبحث، فحسبي أنَّني ما تكلَّمت إلا بما علمت، ولا تساهلت في شيء أعتقد بطلانه، ولا خشيت إظهار حقٍّ يجب إظهاره، ولا سِرْتُ إلا على ضوء ما تيقَّنت.

ولعلَّ في هذه الرِّسالة أشياء لا يوافقني عليها الذين يأبون أن يعترفوا بالتَّصوُّف كشيء تعيَّن[1] في الإسلام.

ولعل فيها أشياء لا يوافقني عليها الغُلاةُ الذين يَعتبرون كلَّ ما في التَّصوُّف تنزيلاً.

ولكن للمؤمن على المؤمنين حسن الظنِّ به، فما أردت إلا الخير، ولا ابتغيت إلا تجلية الحقيقة.

ولو كنت أعرف الحقَّ في غير ذلك لما تجاوزته، ومن دلَّني على الحقِّ في غير ما ذهبتُ إليه قَبِلْتُه.

ومن اجتهد وأخطأ فله أجر، وأرجو من الله تعالى أن يكون لي أجر المُصِيْبِين.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكَّلت وإليه أنيب.

١- لعلَّ سيدي الوالد – رحمه الله تعالى – يشير هنا إلى أنه ذُكِرَ في الإسلام على التَّخصيص، فهو المرتبة الثَّالثة في الإسلام، ألا وهي الإحسان، أو التَّزكية التي أشار لها النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في حديث جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام: "ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك". رواه البخاري وغيره. قال الشَّيخ العلَّامة محمَّد بشير الشَّقفة عند حديثه عن مصطلح "تصوُّف": "إنَّ إنكار ورفضَ ما ينطوي عليه من حقائق إيمانيَّة، وأخلاق مثاليَّة – لمجرَّد التَّسمِّي بهذا الاسم – ظلمٌ له ولأهله، وخسارة أيُّما خسارة لمن حكم عليه هذا الحكم الجائر، لأنَّه ظلم نفسه إذ تعدَّى مرتين، مرَّةً ظلم العلم، ومرَّةً ظلم أهله، وهل علومهم إلا: علم الإحسان، أو تقول: علم الإخلاص، أو تقول: علم العبوديَّة، أو تقول: علم التَّزكية، وهل أهله إلا الرَّبانيُّون، أو تقول: أهل الله، أو تقول: العلماء بالله، أو تقول: أهل الذِّكر، أو تقول: العارفون بالله، ... فبأي اسم سمَّيته أو سمَّيت أهله ممَّا مرَّ فإنَّك تجده في كتاب أو سنَّة ... وتبقى كلمة التَّصوُّف كلمة تراثيَّة تدلُّ على حقائق إيمانيَّة، فلا ينبغي أن نهملها لما تدلُّ عليه، كما لا ينبغي أن نتعصَّب لها كأنها نصٌّ في سنَّة أو كتاب". (أعلام المسلمين، الشَّيخ عبد القادر الجيلاني، ص٢٦-٢٧).

التَّصوُّف كما عرَّفه أصحابه:

أ- عرض لتعاريف القوم للتّصوُّف:

١- قال النُّوري: "ليس التَّصوُّف علوماً ولا رسوماً لكنَّه أخلاق"[١].

٢- قال الجنيد: "التَّصوُّف استعمال كلِّ خُلُقٍ سَني، وَتَرْكُ كلِّ خُلُقٍ دَنِي"[٢].

٣- قال إسماعيل بن نُجَيد عندما سئل عن التَّصوُّف: "الصَّبر تحت الأمر والنَّهي"[٣].

٤- قال أبو الحسن الشَّاذلي: "التَّصوُّف تدريب النَّفس على العُبوديَّة، وردِّها إلى أحكام الرُّبوبيَّة"[٤].

٥- وقال السّري السّقطي: "التَّصوُّف اسم لثلاث معان: هو الذي لا يُطفئُ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلَّم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسُّنَّة، ولا تحمله الكرامات على هتك ستر محارم الله تعالى"[٥].

٦- وقال مولاي العربي الدَّرقاوي: "التَّصوُّف حفظ شرائع الدِّين، وحسن الخلق مع المسلمين، وسلب الإرادة لله ربِّ العالمين[٦]، فحفظ الشَّرائع إسلام، وحسن الخلق إيمان، وسلب الإرادة إحسان"[٧].

٧- وقال الشِّبلي: "التَّصوُّف ضبط حواسِّك؛ ومراعاة أنفاسك"[٨].

٨- وقال الجنيد: "التَّصوُّف أن يُميتَك الحقُّ عنك، ويحييَك به"[٩].

٩- وقال الجلال المَحلّي: "التَّصوُّف تجريد القلب لله تعالى، واحتقار ما سواه"[١٠].

١٠- وقال بشر بن الحارث: "الصُّوفي من صَفَا قلبه لله تعالى"[١١].

١١- ونقل الكلاباذي عن بعضهم: "الصُّوفي من صفت لله تعالى معاملته، فصفت له من الله عزَّ وجلَّ كرامته"[١٢].

١- طبقات الصُّوفيَّة: ١٣٧/١.
٢- طبقات الشافعية: ٢٧١/٢.
٣- الرِّسالة: ١٣٨/١.
٤- نور التحقيق: ص٩٨.
٥- المرجع السابق: ٤٥/١.
٦- أي أن يُسلِّم إرادته لإرادة الله تعالى.
٧- نور التحقيق: ص٩٨.
٨- طبقات الصُّوفيَّة: ٢٥٨/١.
٩- نور التحقيق: ص٩٧.
١٠- ورد هذا القول في نسخة الكتاب منسوباً للجلال المحلِّي، ولكن وقفت عليه في إتمام الدِّراية: (ص١٦٣) أنَّه للجلال السّيوطي، وقد نسبه الإمام السّيوطي للإمام الغزالي.
١١- التَّعرُّف: ص٥.
١٢- المرجع السَّابق.

١٢- وقال أبو سليمان الدَّاراني: "القلب الصُّوُفي قد رأى الله تعالى، وكُلُّ قلب رأى الله تعالى لا يموت، فمن رأى الله تعالى فقد خَلَد"[١].

ب-إنَّ هذه التعاريفَ للتَّصوُّف قالها كبار رجال هذا العلم؛ سواء في القديم أو الحديث، وسنحاول عن طريق جمع هذه المعاني المتفرِّقة والمتناثرة ضمن هذه التعاريف أن نتعرَّف ونقف على حقيقة هذا العلم، لنبيِّن ما هي القواعد والأصول الأساسيَّة التي قام عليها بناء التَّصوُّف بشكل واضح لا لبس فيه، ولا إبهام، ولا غموض إن شاء الله تعالى.

جـ- ١- نلاحظ أصلاً مشتركاً ذكرته ثلاثة تعاريف:

الأوَّل: ليس التَّصوُّف رسوماً وعلوماً ولكنَّه أخلاق.

الثَّاني: التَّصوُّف استعمال كلِّ خُلُقٍ سَني، وترك كلِّ خُلُقٍ دَنِي.

السَّادس: وحسن الخلق مع المسلمين.

هذا الأصل: هو الأخلاق.

٢- ونلاحظ أصلاً مشتركاً ثانياً ذكرته أربعة تعاريف:

الثَّالث: التَّصوُّف الصَّبر تحت الأمر والنَّهي.

الرَّابع: التَّصوُّف تدريب النَّفس على العبوديَّة وردّها لأحكام الرُّبوبيَّة.

الخامس: ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسُّنَّة.

السَّادس: والتَّصوُّف حفظ شرائع الدِّين.

هذا الأصل: هو التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة والاستسلام لهما.

٣- ونلاحظ أصلاً مشتركاً ثالثاً ذكرته ثمَّانية تعاريف:

الخامس: هو الذي لا يُطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه.

السَّادس: سلب الإرادة إحسان.

الثَّامن: التَّصوُّف أن يُميتك الحقُّ عنك ويحييَك به.

والعاشر: الصُّوفي من صفى قلبه لله تعالى.

والثَّاني عشر: القلب الصُّوفي قد رأى الله تعالى، وكلُّ قلب رأى الله تعالى لا يموت.

والتَّاسع: التَّصوُّف تجريد القلب لله تعالى، واحتقار ما سواه[٢].

والسَّابع: التَّصوُّف ضبط حواسِّك ومراعاة أنفاسك.

والحادي عشر: الصُّوفي من صفت لله تعالى معاملته، فصفت له من الله عزَّ وجلَّ كرامته.

وهذا الأصل: هو الإحسان، أو المعرفة، أو الفناء، وعليه يكون التَّعريف الخامس ذكر المعرفة بشكل ضمني، والسَّادس ذكر الإحسان، والعاشر أيضاً، والثاني عشر، والتَّاسع، والسَّابع، أمَّا التَّعريف الثَّامن فقد ذكر الفناء.

١- التَّعرُّف: ص٥.

٢- الاحتقار هنا بمعنى الإعراض عمَّا سواه سبحانه وتعالى.

وهذه الثَّلاثة معنى واحد عند الصُّوفيَّة كما يظهر من تعريف الإمام الجنيد ومولاي الدَّرقاوي (وسلب الإرادة إحسان)، (وأن يُمِيْتَكَ الحقُّ عنك).

فإذا ما جمعنا هذه الأصول الثلاثة يمكننا القول؛ إن التَّصوُّف علم الإحسان، والمعرفة، والأخلاق (تزكية النَّفس)، القائم على التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة.

د- ولسائل أن يسأل: وما للتَّعاريف قد اختلفت صيغها؟

الحقيقة أنَّ اختلاف التَّعاريف لم يكن جوهريَّاً، بل اختلافاً لفظيَّاً، وإلا فالحقيقة واحدة، ذلك:

١- لا معرفة بالله عزَّ وجلَّ دون أن يتمسَّك السَّائر بالكتاب والسُّنَّة.

والدَّليل على ذلك:

أما من الكتاب فقوله عزَّ وجلَّ: {ولكن يناله التَّقوى منكم}، (الحجّ: ٣٧). ولا تقوى بدون اتباع الكتاب والسُّنَّة، {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتَّقين}، (البقرة: ٢).

وأما من أقوالهم – أهل السَّير إلى الله عزَّ وجلَّ – فقول ابن عطاء الله:

"من ألزم نفسه آداب الشَّريعة نوَّر الله تعالى قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلَّى الله عليه وسلَّم في أوامره وأفعاله وأخلاقه"[١].

٢- وأنَّه لا أخلاق دون معرفة:

والدَّليل على ذلك أنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عرَّف البِرَّ فقال: "البِرُّ حسن الخلق"[٢]، والقرآن عرَّف البِرَّ فقال: {ولكن البِرَّ من اتَّقى}، (البقرة: ١٨٩). ولهذا إنَّ الأخلاق هي التَّقوى.

والله عزَّ وجلَّ في القرآن جعل المعرفة وسيلة إلى التقوى على لسان كثير من الأنبياء بما في ذلك شريعتنا، يقول سبحانه: {يا أيها النَّاس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتَّقون}، (البقرة: ٢١). وقد فسَّر المفسِّرون العبادة هنا بمعنى المعرفة:

فقد نقل أبو السُّعود، عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما في تفسيره هذه الآية: "أنَّ كلَّ ما ورد في القرآن من العبادات فمعناها التوحيد. ثمَّ قال: وقيل بمعنى اعبدوا، وحِّدوا، وأطيعوا"[٣].

وقال النَّسفي عندها: "وحِّدوه". وكذلك فسَّرها الخازن، وكذلك ابن كثير، وهي تفسير الجلالين كذلك.

١- الرِّسالة: ١٠٣/١.

٢- رواه مسلم، رقم (٢٥٥٣).

٣- تفسير أبي السُّعود: ٥٨/١.

لهذا يظهر جلياً أنَّ التَّرابط والتَّلازم بين المعرفة والأخلاق تلازم تام، وكذلك بين المعرفة والأخلاق، والتّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة، وعلى هذا نستطيع القول إنَّ الاختلافات في التَّعريف لفظيَّة، والأصل واحد.

من عرَّف منهم بالكتاب والسُّنَّة؛ ذكر الأصل الجامع لكلِّ شيء، والذي عرَّف العلم بالأخلاق؛ عرَّفه بالثمَّرة والنَّتيجة، ومن عرَّفه منهم بالمعرفة؛ إنَّما عرَّف بالوسيلة.

أوَّلاً: التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة:

وعلى هذا لو تتبَّعنا أقوالهم وأحوالهم لوجدناهم جميعاً يحومون حول هذه المعاني، ولا يحاولون الخروج عنها، فما من كلمة من كلماتهم إلا وترجع إلى أصل من هذه الأصول: المعرفة، الأخلاق، التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة، فالقوم رضوان الله تعالى عليهم متَّفقون ومجمعون على هذه الأصول الثلاثة.

وليزداد البحث وضوحاً نذكر طرفاً ممَّا قالوه أو فعلوه فيما له علاقة وارتباط بأصولهم، ولا شكَّ أنَّ كلَّ أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم لها علاقة بها، ولنعرض لك بالتَّرتيب الآتي مبتدئين بتمسُّكهم بالكتاب والسُّنَّة.

أ- أصول الطَّريق: فالقوم يرون أن أصول طريقهم إنَّما تقوم على أساس التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة، وأصل الشَّيء ما يقوم عليه، قال سهل التّستري: "أصول طريقنا سبعة: التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة، والاقتداء بالسُّنَّة، وأكل الحلال، وكفُّ الأذى، وتجنُّب المعاصي، ولزوم التَّوبة، وأداء الحقوق"[١].

وقال أبو العبَّاس: "أصول طريقنا خمسة أشياء: تقوى الله تعالى في السِرِّ والعلن، واتِّباع السُّنَّة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرِّضا عن الله تعالى في القليل والكثير، والرُّجوع إلى الله تعالى في السَّراء والضَّراء"[٢].

وكيف لا يكون التَّمسُّك الأصل والركن عندهم؛ وسيرهم إنَّما يَستمدُّ خطواته منه، ويوسم من هُجِرُوا على أساسه، ولم لا وهم إنَّما يسيرون إلى حضرة الحق، ويبغون معرفة جلاله وجماله، ولا يتصوَّرون دخولاً عليه إلا من هذا الباب، باب الشَّريعة، يقول الجنيد: "الطرق كلُّها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم واتَّبع سنَّته، ولزم طريقته"[٣].

لذلك كان الكتاب وكانت السُّنَّة أصل هذا العلم؛ علم التَّصوُّف: يقول النصرآباذي: "أصل التَّصوُّف ملازمة الكتاب والسُّنَّة، وترك الأهواء والبدع،

١- التَّعرُّف: ص٦٦.

٢- نور التَّحقيق: ص١١٦.

٣- الرِّسالة: ٧٩/١.

وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرُّخص والتَّأويلات"[١].

ب- الكتاب والسُّنَّة هما الميزان: ميزان الكشف، وميزان الحقائق، وميزان الخواطر والأعمال، وميزان الباطن والظَّاهر، وميزان الأشخاص. فإذا تعارض الشَّرع مع الكشوفات والوقائع التي تقع معهم في سيرهم إلى الله تعالى، كان الشَّرع هو الحاكم والميزان؛ يقول أبو الحسن الشَّاذلي: "إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسُّنَّة فتمسَّك بالكتاب والسُّنَّة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسُّنَّة، ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسُّنَّة"[٢].

والمعارف والحقائق التي تُجلى لهم في تعرُّفهم على الله تعالى، إذا لم يقبلها الكتاب والسُّنَّة فتلك زندقة وليست بمعرفة: يقول السَّيِّد الجيلاني رحمه الله تعالى: "كُلُّ حقيقة لا تشهد لها الشَّريعة فهي زندقة"، ثمَّ يطالبك السَّيِّد أن تفرَّ إلى الله تعالى بهذين الجناحين الكبيرين المتينين، الكتاب والسُّنَّة فيقول: "طِرْ إلى الله عزَّ وجلَّ بجناحي الكتاب والسُّنَّة، أُدخل عليه ويدك في يد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم"[٣].

وحتى خواطرك التي تخطر لك، وأعمالك التي تقوم بها، يجب أن تزنها بهذا الميزان، ميزان الشَّرع، يقول أبو حفص: "من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسُّنَّة، ولم يتَّهم خواطره فلا نَعُدّهُ في ديوان الرِّجال"[٤].

ويقول أبو سليمان الدَّاراني: "ربما تقع في قلبي النُّكتة من نكت القوم فلا أقبل منها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسُّنَّة"[٥].

فيكف تخالف بواطنهم ظاهر الشَّريعة وهم الذين يقولون على لسان الخرَّاز: "كلُّ باطن يخالفه ظاهر فهو باطل"[٦].

ويقولون على لسان النُّوري: "من رأيته يدَّعي مع الله تعالى حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشَّرعي فلا تقربنَّ منه"[٧].

ج- المحافظة على السُّنن: فقومٌ هذه عباراتهم وذاك إعلانهم كيف لا يكونون أئمَّة النَّاس، وحَمَلَةَ مشاعل النُّور والهداية للإنسانيَّة، وهم لا يحيدون قِيْدَ شعرة عن النُّور الإلهي والهدي المُحمَّدي.

١- الرِّسالة: ١٤٥/١.
٢- التَّعرُّف: ص٦٦.
٣- رجال الفكر والدَّعوة: ٣٢٩/١.
٤- الرِّسالة: ٦٩/١.
٥- المرجع السَّابق: ٦١/١.
٦- الرِّسالة: ٩٨/١.
٧- المرجع السَّابق: ٨٣/١.

وإذا أردت أن تعرف مقدار تمسُّكهم بالسُّنَّة فاسمع إلى قول أبي يزيد يقول لصاحبه: "قُم بنا ننظر إلى هذا الرَّجل الذي شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزُّهد، فمضينا إليه؛ فلمَّا خرج من بيته ودخل المسجد رَمَى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد فلم يسلِّم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه"[١].

فمن علامة إخلاص المرء اتِّباعه السُّنَّة المشرَّفة، يقول الحارث المحاسبي: "من صحَّح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زَيَّنَ الله تعالى ظاهره بالمجاهدة واتِّباع السُّنَّة"[٢].

د- إسقاط التَّكاليف: فكيف يقولون إذاً بإسقاط التَّكاليف، وتعطيل الحدود، وهم أهل الشَّريعة والحقيقة المنسجمتين المتكاملتين، غير المتناقضتين المتعارضتين، فالذين قالوا بإسقاط التَّكاليف ضلُّوا وأضلُّوا، وخرجوا كما خرجت غيرهم من الفِرق عن ملَّة أهل السُّنَّة والجماعة.

ذكر رجل المعرفة أمام الجنيد فقال: "أهل المعرفة بالله تعالى يصلون إلى ترك الحركات من باب البِرِّ والتَّقرُّب إلى الله". فقال الجنيد: "إن هذا قول قوم تكلَّموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أقلُّ سوءاً من الذي يقول هذا، فإنَّ العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها، ولو بقيتُ ألف عام لم أُنقص من أعمال البِرِّ ذرَّة إلا أن يُحال بي دونها"[٣].

ويقول السَّيِّد الجيلاني رحمه الله تعالى: "ترك العبادات المفروضة زندقة"[٤].

وقيل للجنيد: "إن أناساً يزعمون أنهم وصلوا إلى اليقين، ويقولون بإسقاط التَّكاليف، فقال: نعم وصلوا؛ ولكن إلى سَقَر"[٥].

كيف يقول عاقل بهذا القول ولم يؤقِّت الكتاب ولا السُّنَّة للعبادة مدَّة غير الموت: {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين}، (الحِجر: ٩٩). فكلُّ من أبطل شيئاً من هذا فهو مغرور ضالّ. والمخلص المصيب هو من عرَّفه أبو بكر الطمستاني: "فمن صحب منَّا الكتاب والسُّنَّة وتغرَّب عن نفسه والخلق، وهاجر بقلبه إلى الله تعالى فهو الصَّادق المصيب"[٦].

هـ- ويجمع الكُلَّ قول الإمام الغزالي رضي الله تعالى عنه: "واعلم أنَّ سالك سبيل الله تعالى قليل، والمُدَّعي فيه كثير، ونحن نعرِّفك علامتين له؛ العلامة الأولى: أن

١- الرِّسالة: ٥٧/١.
٢- المرجع السَّابق: ٥١/١.
٣- الرِّسالة: ٧٨/١.
٤- رجال الفكر والدَّعوة: ٣٢٩/١.
٥- الرِّسالة: ١١٩/١.
٦- المرجع السَّابق: ١٤٢/١.

تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشَّرع، موقوفة على حدّ توقيفاته؛ إيراداً وإصداراً، وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السَّبيل إلا بعد التَّلبُّس بمكارم الشَّريعة كلِّها، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النَّوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض.

فإن قلت: فهل تنتهي رتبة السَّالك إلى الحدِّ الذي يصل فيه إلى ترك بعض وظائف العبادات؛ ولا يضُرُّه بعض المحظورات، كما نُقل عن بعض المشايخ عن التَّساهل في هذه الأمور؟.

وأقول لك: إنَّ هذا عين الغرور، وإنَّ المحقِّقين قالوا: لو رأيت إنساناً يطير في الهواء، ويمشي على الماء، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشَّرع فاعلم أنه شيطان"[١].

ثانياً: الأخلاق:

سنعرض في موضوع الأخلاق هذا إن شاء الله تعالى أقوال القوم في الأخلاق كما عرفت ذلك في أول الكتاب، عند عرض أقوالهم في التَّصوُّف، ثمَّ إنَّنا سنسلك المسلك التَّحليلي في أقوالهم لنخلص إلى قصدهم من هذه التَّعاريف، ثمَّ نعلِّل بعدها عنايتهم الفائقة بالأخلاق، وسبب تلك العناية، وما حملهم على الاهتمام بها، ثمَّ نذكر بعد ذلك تقسيمهم لمراحل التَّهذيب إلى تخلية وتحليه، ثمَّ نأتي بمثال نظريٍّ عن طرائق العلاج والتَّهذيب، ثمَّ نستشهد شاهدين من ثقات النَّاس في القوم رضي الله عنهم.

١- من أقوالهم في الأخلاق:

أ- قال الكتَّاني: "التَّصوُّف خُلق؛ من زاد عليك في الخُلق فقد زاد عليك في التَّصوُّف"[٢].

ونقل السَّهروردي عن بعضهم: "التَّصوُّف الخُلق مع الخَلق، والصِّدق مع الحق"[٣].

ونقل كذلك: "من أوتي الخُلُقَ العظيم فقد أوتي أعظم المقامات، لأن للمقامات ارتباطاً عامَّاً، والخُلق ارتباط بالنُّعُوت والصِّفات"[٤].

وقال الجنيد: "أربع ترفع العبد إلى أعلى الدَّرجات، وإن قلَّ عمله وعلمه: الحلم، والتَّواضع، والسَّخاء، وحسن الخَلق هو كمال الإيمان"[٥].

ب- والنَّاظر في بحث القوم عن الأخلاق يجد أن مفهوم الأخلاق عندهم شامل لكلِّ شيء، سواء كان عبادة، أو معاملة، أو معنى باطنيَّاً له من عالم القلب والرُّوح والنَّفس صلة، ويتجلَّى هذا واضحاً في تعريفاتهم للأخلاق:

١- ميزان العمل: ١/٣٩٩-٤٠١ (بتصرُّف).
٢- إحياء علوم الدِّين: ٣/٥٢.
٣- عوارف المعارف: ص٥٩.
٤- المرجع السَّابق: ص٦٠.
٥- إحياء علوم الدِّين: ٣/٥٢.

قال الواسطيّ: "الخُلق العظيم أن لا يُخَاصِمَ ولا يُخَاصَمَ من شدَّة المعرفة"[١]. وقال ابن عطاء: "الخُلق العظيم أن لا يكون له اختيار، يكون تحت الحكم[٢]؛ مع فناء النَّفس، وفناء المألوف"[٣].

وقال سهل التُّستريّ: "ألا يتَّهم الحقَّ في الرِّزق، ويثق به، ويسكن إلى الوفاء بما ضمن، فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه، وفيما بينه وبين النَّاس"[٤].

ونقل الغزاليّ عن عليٍّ رضي الله عنه: "حُسن الخُلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتَّوسعة على العيال"[٥].

ج- هذه أقوالهم تزيد الفكرة وضوحاً، وهي أن مفهومهم عن الأخلاق مفهوم شامل، وكلَّما توسَّعنا في دراسة ما نقل عنهم، نجد أن الفكرة تظهر بشكل بيِّنٍ لا لَبْسَ فيه ولا غموض، فالرِّضَى عن الله تعالى عندهم خُلق، حتى أن أبا عثمَّان عرَّف حُسن الخُلق فقال: "هو الرِّضى عن الله تعالى"[٦]، وكفُّ الأذى، واحتمال المؤمن، والشُّكر على المعروف، وإرضاء الخَلق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، والتَّواضع، والإيثار، والزُّهد، والعفو، وعدم التَّكلُّف، والعقيدة الصَّحيحة، والتَّسليم، والتَّوكُّل، وترك منكرات الأخلاق ...إلخ. فكلُّ هذا من الأخلاق في مفهوم القوم رضي الله تعالى عنهم.

د- ولقد عرَّف الإمام الغزالي الأخلاق فقال: "فالخُلق عبارة عن هيئة في النَّفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروِيَّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سمِّيت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإنَّما قلنا أنها هيئة راسخة في النَّفس لأن من يصدر عنه بذل المال على النُّدور ولحاجة عارضة لا يقال له خُلق السَّخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنَّما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روِيَّة لأن من كلِّف بذل المال لا يقال خُلقه السَّخاء"[٧].

٢- عنايتهم بالأخلاق: وبعد أن أمعنت النَّظر في أقوال القوم تستطيع أن تحكم أن الأخلاق عندهم هي المعرفة والتَّوحيد، والشَّريعة والحقيقة، والمعاملة وترك المُجادلة، والتَّسليم للقضاء والقدر، والصبر على الحكم في كلِّ الأمور، فهي عندهم في الحقيقة كلُّ شيء، لذلك اعتنوا بها العناية الفائقة، وأعطوها من وجودهم كلَّ شيء، وجعلوها مقياس الأشخاص، وعلامة القُرب، وإشارة الخضوع والتَّسليم

١- إحياء علوم الدِّين: ٥٣/٣. أي معرفته في مجاري الأقدار.
٢- أي فيما نزل ووقع.
٣- عوارف المعارف: ص٦٠.
٤- إحياء علوم الدّين: ٥٣/٣.
٥- المرجع السَّابق.
٦- إحياء علوم الدّين: ٥٣/٣.
٧- المرجع السَّابق: ٥٣/٣.

لأحكام الرَّبِّ، ولقد حفَّزهم إلى تقديمها على كل شيء والعناية بها كل العناية ثلاثة أسباب أساسية:

أولها: كون تزكية النَّفس فرضاً في شريعة الإسلام. **وثانيها:** اعتقادهم بإمكان تغيير الأخلاق وتبديلها (قابليَّتُها للتَّبديل). **وثالثهما:** أن الأخلاق مقصودة من العبادات والشَّعائر الدِّينيَّة.

فالقوم رضي الله عنهم يراقبون النَّفس الإنسانيَّة في أدقِّ اختلاجاتها وأرهف خواطرها، ولايزالون بها صقلاً حتى يتم صَقلها وتهذيبها ووصلها بالملأ الأعلى، ومعرفتها بالحقِّ سبحانه، وعنايتهم هذه بالنَّفس الإنسانيَّة تهذيباً وتربية، وتطهيراً من الصِّفات والشَّوائب الباطنيَّة الدَّخيلة على الفطرة الإنسانيَّة الأصيلة فطرة التَّوحيد والمعرفة بالله عزَّ وجلَّ، لما للأخلاق عندهم من شمول المفهوم، ولما للتَّزكية عندهم من علاقة وثيقة بالنِّسبة لصلتهم بالله عزَّ وجلَّ ومعرفتهم به سبحانه.

وهم لا يرون تزكية النَّفس الإنسانيَّة عملاً مباحاً، أو فاكهة يأكلها من يشتهي ويدعها من لا يحب، يُقدم عليها من وافقت نَفْسَهُ وقلَّ ما يوجد، ويعرض عنها من أبت عليه نفسه وقعدت به عن المُجاهدات وهربت من ميادين الأعمال.

بل تزكية النَّفس عندهم فرض عيني، ولا أعني بهذه العينيَّة أنَّ ذلك حصل لهم من نظرهم الخاصّ، واستنباطهم الشَّخصي من أحكام الشَّريعة، وإنما هذه الفرضيّة ثابتة بالنُّصوص القطعيَّة، وقد أجمع عليها أهل العلم ولم يخالف فيه مخالف، ترى ذلك واضحاً في الكتاب والسُّنَّة وأقوال علماء الأمَّة.

ولمَّا أقول فرضاً عينياً أعني به كذلك أن قيام البعض به لا يسقطه عن الباقين، فَكُلٌّ مكلَّف بالمجاهدة بنفسه، قبل كل جهاد، بل لقد أجمع أهل العلم بالتَّفسير أنَّ الجهاد فُرض في المدينة، ولكنَّ جهاد النَّفس فرض في مكَّة قبل ذلك، واعلم بعد لماذا اعتنى القوم تلك العناية بالأخلاق.

٣- قابليَّة الأخلاق للتبدُّل: وهذه الفكرة الحَقَّةُ كانت حافزاً لهم مشجِّعاً على إقدامهم، ولو كانت هذه النَّظرة عكسيَّة لكانوا من أصحاب مذهب التَّشاؤم، ولسيطر عليهم اليأس، ولوقفوا حيارى أمام الأوامر الإلهية التي تَهيب بهم أن يتَّجهوا إليه بتهذيب الأخلاق ورقَّة الطِّباع، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أنقذهم من هذا البئر، بئر التَّعطيل؛ وفتح أمامهم باب التَّفاؤل على مصراعيه، وجعل فكرة التَّبديل راسخة في نفوسهم كأنَّها فطرة أو بدهية، ونسبوا كلَّ من غاير قولهم هذا إلى البطالة والكسل وخبث الباطن.

يتمثَّل لك هذا المذهب في قول الإمام الغزالي رضي الله عنه إذ يقول في كتاب "رياضة النَّفس"، تحت عنوان: "قبول الأخلاق للتغيّر بطريق الرِّياضة": "اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرِّياضة والاشتغال بتزكية النَّفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك، لقصوره ونقصه

وخبث دُخْلَتِهِ، فزعم أن الأخلاق لا يتصَّور تغيُّرها، فإن الطِّباع لا تتغيَّر، واستدلَّ فيه بأمرين:

أحدهما؛ أنَّ الخُلق هو صورة البَاطِن، كما أنَّ الخَلق هو صورة الظَّاهِر، فالخِلْقَةُ الظَّاهرة لا يقدر على تغييرها، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته، فكذلك القُبح الباطن يجري هذا المجرى.

والثَّاني؛ أنَّهم قالوا: حسن الخلق بقمع الشَّهوة والغضب، وقد جرَّبنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطَّبع، فإنه قد لا ينقطع عن الآدمي، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة، فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة، وذلك محال وجوده.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغير لبطلت الوصايا والمواعظ والتَّأديبات، ولما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "حسِّنوا أخلاقكم"[1]، وكيف يمكن هذا في حقِّ الآدميّ وتغيير خُلق البهيم ممكن إذ ينقل البازيُّ من الاستيحاشيِّ إلى الإنسيّ، والكلب من شره الأكل إلى التَّأدب والإمساك والتَّخلية، والفرس من الجماح إلى السَّلاسة والانقياد، وكلُّ ذلك التَّغير تغيُّر للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسَّماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً، وسائر أجزاء الحيوانات، وبالجملة كلُّ ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله، وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً، وجعل فيه قوَّة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد.

فإنَّ النُّواة ليست بتفَّاح ولا نخل، إلا أنَّها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضافت التَّربية إليها، ولا تصير تفَّاحاً أصلاً ولا بالتَّربية، فإذا صارت النُّواة متأثِّرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض؛ فكذلك الغضب والشَّهوة لو أردنا قهرهما بالكليَّة حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرِّياضة والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أمرنا بذلك، وصار ذلك سببَ نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى، نعم الجبلَّات مختلفة؛ بعضها سريعة القبول، وبعضها بطيئة القبول، ولاختلافهما سببان:

أحدهما: قوَّة الغريزة في أصل الجبلَّة وامتداد مدَّة الوجود، فإنَّ قوَّة الشَّهوة والغضب والتَّكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التَّغيير قوَّة الشَّهوة، فإنَّها أقدم وجوداً، إذ الصَّبي في مبدأ الفطرة تُخْلَقُ له الشَّهوة، ثمَّ بعد سبع سنين ربَّما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوَّة التَّمييز.

والسَّبب الثَّاني: أنَّ الخُلُقَ قد يتأكَّد بكثرة العمل بمقتضاه، والطَّاعةِ له باعتقاد كونه حسناً ومرضيَّاً، والنَّاس فيه على أربع مراتب:

١- قال الحافظ العراقي: رواه أبوبكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ: "يا معاذ؛ حسِّن خُلقَك للنَّاس"، منقطع ورجاله ثقات. (إتحاف السَّادة المتَّقين: ٦١٩/٨).

الأولى: وهو الإنسان المغفل الذي لا يميِّز بين الحقِّ والباطل، والجميل والقبيح، بل بقي كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات، ولم تستتمَّ شهوته أيضاً باتِّباع اللَّذات، فهذا سريع القبول للعلاج جداً، فلا يحتاج إلا إلى معلِّم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان.

الثَّانية: أن يكون قد عرف قبح القبيح، ولكن لم يتعوَّد العمل الصالح، بل زيِّن له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته، وإعراضاً عن رأيه لاستيلاء الشَّهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله، فأمره أصعب من الأوَّل، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه، إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولاً من كثرة الاعتياد للفساد، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصَّلاح، ولكنَّه بالجملة محل قابل للرِّياضة إن انتهض لها بجدٍّ وتشمير وحزم.

الثَّالثة: أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة، وأنها حقّ وجميل وتربَّى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته، ولا يرجى صلاحه إلا على النُّدور، وذلك لتضاعف أسباب الضَّلال.

الرَّابعة: أن يكون مع نشوئه على الرَّأي الفاسد، وتربيته على العمل به، يرى الفضيلة في كثرة الشَّرِّ واستهلاك النُّفوس، ويباهي به، ويظنُّ أنَّ ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب، وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الذئب"[1].

إن الأخلاق مقصودة من العبادات والشَّعائر الدِّينيَّة، ولم يحصِّل من الإسلام شيئاً من لم يحصِّل الأخلاق، وعبادات لا أخلاق فيها إنما هي حركات لا معنى لها ولا روح.

فالله عزَّ وجلَّ أمر بالصَّلاة وأراد منها أن تثمَّر أخلاقاً، وفرض الزَّكاة لتزكية النَّفس وتطهيرها، والحجِّ للتَّدريب العمليِّ على ترك الرَّفث والفسوق والجدال، والصِّيام للتَّعليم على ضبط النَّفس عن شهواتها حتى الضَّروريّ إذا اقتضى الحال، فكأنَّ الأخلاق بالنِّسبة للعبادات غاية، والعبادات وسيلة إليها.

من هذا الذي ذكرت لك تستطيع أن تقدِّر قيمة الأخلاق عند القوم، وأهميتها في سيرهم، وشدَّة عنايتهم بها، ولماذا كان ذاك.

التَّخلية والتَّحلية: لذلك عكف القوم على دراسة النَّفس الإنسانيَّة وأمراضها بدقَّة وإحساس مرهف، وغاصوا في أعماقها، وسَبَرُوا أغوارها، فتكشَّفت أمامهم على حقيقتها، وتفهَّموا تقلُّباتها ومداخلها وأحصوا جميع الصِّفات التي تجب إزالتها وتطهير الذَّات الإنسانيَّة منها، وأسموها الأخلاق السَّيِّئة، وجميع الصِّفات التي يجب التَّحقُّق والتمثُّل بها، وأطلقوا عليها اسم الأخلاق الحسنة.

وعرفوا أن الخلق معيار لا يسع غيره، فالخلق الحسن لا يمكن أن يجتمع مع الخلق القبيح حقيقة إلا بعد رحيل الأول، فمن المستحيل أن يجتمع التَّواضع

١- إحياء علوم الدِّين: ٥٥/٣.

مع الكِبر في قلب، أو حبِّ الخير للآخرين مع الحقد والحسد لهم، أو الزُّهد في الدُّنيا مع حبِّها، لكلِّ هذا قالوا: لا بُدَّ للسَّائر إلى حسن الأخلاق من مرحلتين اثنتين حتى يصل إلى مبتغاه:

الأولى: أن يتخلَّى عن جميع الأخلاق السَّيِّئة والطِّباع اللَّئيمة ويهجرها، وتلك في مذهبهم يطلق عليها اسم (التَّخلية).

الثَّانية: أن يُحَلِّيَ ما أخلي من القلب الفارغ الصَّافي بدرر وجواهر الأخلاق النَّفيسَة، وهذه هي (التَّحلية).

فلا بد إذن من استكمال مرحلتين: تخلية وتحلية للوصول، وأنت ترى أن الفارق بينهما نقطة، ولقد قالوا بإمكان المحو والتَّبديل، فإذا أزلت نقطة الغين صارت عيناً، وانتهى الموضوع.

أما الأخلاق التي يتخلى عنها العبد كما يقول صاحب نور التَّحقيق:

"فيتخلَّى العبد عن الصِّفات السَّيِّئة، وهي كثيرة مثل: الكِبر، والعجب، والرِّياء، والحقد، والحسد، وحبِّ الجاه، والمال، ويتفرَّع من هذه الأصول فروع:

من العداوة، والبغضاء، والتَّذلُّل للأغنياء، واحتقار الفقراء، وترك الثِّقة بمجيء الرِّزق، وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق، والشُّحِّ، والبخل، وطول الأمل، والأشر، والبطر، والغلِّ، والغشِّ، والمباهاة، والتصنُّع، والمداهنة، والقسوة، والفظاظة، والغفلة، والجفاء، والطَّيش، والعجلة، والحدَّة، والحميَّة، وضيق الصَّدر، وقلَّة الرَّحمة، وقلَّة الحياء، وترك القناعة، وحبِّ الرِّياسة، وطلب العلوِّ، والانتصار للنَّفس، إلى غير ذلك من النُّعوت الذَّميمة والأخلاق اللَّئيمة، خَلَّانَا الله عزَّ وجلَّ عنها بحوله وقوَّته".

والتي يتحلَّى بها فهي كما يقول: "ثمَّ يتحلَّى بمكارم الأخلاق، وبمحاسن الصِّفات من التَّواضع لله تعالى والخشوع بين يديه على الدَّوام، واليقظة بأمره، والحفظ لحدوده، والهيبة له، والخوف منه، والتَّذلُّل لربوبيَّته، والإخلاص في عبوديَّته، والرِّضا بقضائه، ورؤية المنَّة له عليه في منعه وإعطائه.

ويتَّصف بين خلقه بالرَّأفة والرَّحمة، واللِّين والرِّفق وسعة الصَّدر، والحلم والاحتمال والصِّيانة، والنَّزاهة والأمانة والثِّقة والعطف، والتَّأنِّي والوقار والسَّخاء، والجود والحياء والبشاشة، وسلامة الصَّدر، إلى غير ذلك من الأخلاق التي بها ينال العبد غاية الحسنى وزيادة"[1].

مثال: وبعد هذا لا بد من إيضاح وجه الدِّقة التي وُصِفَ بها القوم في معالجة أمراض النَّفس وصفاً وتحليلاً، ثمَّ رسماً واضحاً لطريق المعالجة، وبيان دراستهم للنَّفس في تقلُّباتها وميلها إلى شهواتها الخفيَّة، والعوامل التي تؤثِّر فيها، والتَّوجُّيهات التي تنفذ إلى أعماقها.

ولنأخذ مثالاً على هذا معالجة الرِّياء نقلاً عن الحارث المحاسبيِّ بالحرف من باب الرِّياء، قال الحارث المحاسبيُّ في باب الرِّياء:

١- نور التَّحقيق: ص٩٩.

"قلت: قد وصفتَ لي مراقبة الله عزَّ وجلَّ وذِكْرَهُ والرِّعاية لحقوق الله عزَّ وجلَّ ووجوه طَلَبِهَا، والأوَّل من الواجب والفضل، فما تخاف عليّ بعد ذلك؟.
قال: أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه في آخرتك ويذهب بحلاوته من قلبك.
قلت: ذلك أعظم للحسرة أن أتعنَّى ثمَّ يحبط ويبطل عملي، وما ذلك المعنى؟
قال: فإن المتَّقي الراعي لحقوق الله عزَّ وجلَّ القائم بها يبدِّل أحواله حتى تظهر للخلق، فيظهر منه الصَّمت بعد طول الخوض في ما لا يعنيه ولا يحلّ له، وتظهر منه المُجانبة لما كان يعصي الله عزَّ وجلَّ معه، ويظهر من الأنس لمن يسلم معه ومن يستفيد منه الخير، ويظهر منه الكلام فيما يحب الله عزَّ وجلَّ، ويتقرَّب به إليه، وتسكت جوارحه ويخشع طرفه، وتعلوه السَّكينة والوقار فتظهر منه الطَّاعات.

فعند ذلك تعلم النَّفس أنَّ ما ظهر منها لعباد الله عزَّ وجلَّ لن يمتنعوا أن يحمدوا فعله ويعظّموه بذلك، ويرو له الفضل والقدر، وتعلم النَّفس أنَّ ما يُظنُّ منه وأسرَّه لو ظهر لحُمِدَ ذلك منه وفضِّل به، فتطلب النَّفس الرَّاحة إلى التَّزيُّن بالدِّين بما أظهر وبما أسرَّ أن يكون محموداً معظماً، ليكون في الدُّنيا محموداً معظَّاً.

لأنه كما منعها من كثير من لذاتها من الدنيا فإذا وجدت موضع خلاص في الدِّين إلى طلب اللَّذَّة والرَّاحة نزعته إليه، لتصيب من راحة الدنيا بعد منعه لها أكثر لذاتها وراحتها، وهي شهوتها الخفيَّة ولذّتها الكامنة، لأنها حبست من ظاهر شهوتها، فعلم العبد – إذا نازعته إليها – أنها قد نازعته إلى شهوتها ولذَّتها، وليس من شهوتها الظَّاهرة؛ ولا من شهوات مطعمها ومشربها وملبسها ومنكحها التي تنالها بجوارحها، ولكن؛ شهوة من باطنها في خير ظاهرها، فهي خفية في النفوس لأنها ليست بظاهرة من فضول حلال منفرد به، ولا شيء ينفرد من الشَّرِّ الذي لا يشوبه الخير، ولكنها شهوة خفية إذا صارت ممازجة للخير داخلةً فيه.

فعامِلُهَا ظاهر الخير فهو مطيع في الظَّاهر، يرى أنه لله عزَّ وجلَّ يعمل، والنَّفس قد أبطنت الشَّهوة لتتزيَّن بذلك وتتصنَّع عند العباد بظاهر الطَّاعة، وأنها قربة لا يتهم العبد نفسه فيتفقدها، لأن الشَّهوة تخفي على العبد قصده من أجلها، فلا يتبيَّن ذلك إلا بالعلم الدَّال على قصده ما هو، فكمنت وخفيت على الحامل إذا لم يستضيء بالعلم.

كما يروى عن وهب أنَّه قال: "كُمون الشَّهوة في القلب ككمون النَّار في العُود؛ إن قُدح أوْرَى، وإن تُرك خَفي". وقال: "الرِّياء أبْيَنُهُ كذب، وأخفاه مكيدة". يعني أنه يخفى على من غفل، ويتبيَّن لمن يتفقَّده بالعلم، وينظر إليه بالمعرفة.

ومن علم شدَّة حاجته إلى صافي الحسنات غداً في القيامة، غلب على قلبه حذر الرِّياء وتصحيح الإخلاص بعمله حتى يوافي يوم القيامة بالخالص المقبول، إذا علم أنه لا يخلص إلى الله جلَّ ثناؤه إلا ما خلص منه، ولا يقبل يوم القيامة إلا ما كان صافياً لوجهه لا تشوبه إرادة بشيء غيره.

فمن عقل شدَّة ذلك اليوم، وشدَّة فقره إلى صافي الحسنات، خشي أن يأتي يوم القيامة بغدو أو رواح إلى علم أو صلاة، أو صيام أو خشوع، أو حج أو غزو أو كرٍّ على عدو في سبيل الله تعالى لم يخلص، فيحبط فتصير حسناته أنقص من سيئاته، ولو كان أخلص في الدُّنيا لرجحت حسناته على سيئاته فدخل الجنَّة بذلك.

فلمَّا حبط عمله بقيت سيِّئاته أرجح، وحسناته أخفّ وأنقص، فيخاف العاقل ذلك، فيغلب على عقله حذر الرِّياء، والتصنّع للعباد، وإرادة الله جلَّ ثناؤه وحده لا غيره، حتى يتخلّص له علمه وعمله.

قلت: فلا غنى بي عن معرفة الرِّياء ما هو؟.

قال: أجل لا غنى بك عن معرفته، وإلا لم تحسن أن تتَّقي ما لا تعلم، ولا تحذر ما لا تبصر، وذلك شأن المريدين من قبلك: أن يعلموا ما نهوا عنه ليدعوه على علم ومعرفة، قال أبو الدَّرداء رضي الله تعالى عنه: "إنَّ من فقه العبد أن يعلم نزغات الشَّيطان"[1]، أي متى تأتيه.

وصدق رضي الله تعالى عنه؛ إذا فقه العبد عن الله عزَّ وجلَّ أن لا يقبل إلا ما خلص وصفا من الأعمال لوجهه دون خلقه، وأنَّ نفسه وعدوَّه يدعوانه إلى ما يحبط عمله، حَذِرَ واستدلَّ بالعلم فعلم حين تأتيه النَّزغة من قبل الرِّياء أو غيره.

وعن يونس عن الحسن: "لا يزال العبد بخير ما علم ما الذي يفسد عليه عمله"، فلا غنى بالعبد عن معرفة ما أُمرنا باتِّقائه من الرِّياء وغيره، ولا سيَّما الرِّياء إذا وصف بالخفاء، ففي الحديث أنه أخفى من دبيب النَّمل[2].

فما خفي لم يعرف إلا بشدَّة التَّفقُّد ونفاذ البصيرة بمعرفته له حين يعرض، وإلا لم ينفع التَّفقدُّ لما لا يعرف، فبالخوف والحذر يتفقَّد العبد الرِّياء، وبمعرفته يبصره حين يَعرض، فلا غنى بك عن معرفة الرِّياء.

قلت: فما هو؟ وما دل عليه من العلم لتقوم بذلك الحجة وينشرح لقبوله الصَّدر؟

قال: الرِّياء: إرادة العبد العباد بطاعة ربِّه.

وقلت: الرِّياء في هذا الوجه وحده، أم في غيره من الوجوه؟

قال: الرِّياء هو الإرادة وحدها إلا أنه على وجهين؛ أحدهما أعظم وأشد، والآخر أهون وأيسر، وكلاهما رياء.

وإنَّما الوجه الذي هو أشدُّ الرِّياء وأعظمه: إرادة العبد العباد بطاعة الله عزَّ وجلَّ لا يريد الله عزَّ وجلَّ بذلك، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: "ألا تعمل بطاعة

١- رواه اللآلكائي في السُّنَّة رقم (١٧١٠) من طريق الإمام أحمد، وابن بطَّة في الإبانة رقم (٨٤٩).

٢- عن معقل بن يسار قال: انطلقت مع أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: "يا أبا بكر؛ للشِّركُ فيكم أخفى من دبيب النَّمل". فقال أبو بكر: وهل الشِّرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر؟ فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "والذي نفسي بيده، للشِّرك أخفى من دبيب النَّمل، ألا أدلُّك على شيء إذا قلتَه ذهب عنك قليله وكثيره؟"، قال: "قل: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم". (الأدب المفرد، باب فضل الدُّعاء).

الله تريد الناس"[1]، وأمَّا الوجه الذي هو أدنى وأيسر: فإرادة العباد بطاعة الله عزَّ وجلَّ، وإرادة ثواب الله عزَّ وجلَّ، يجتمعان في القلب، الإرادتان: إرادة المخلوقين، وإرادة ثواب الله تعالى، وهو أدنى الرِّياء، وهو الشِّرك بالإرادة في العمل، لأنَّ الأوَّل أراد النَّاس ولم يرد الله عزَّ وجلَّ، وهذا أراد الله عزَّ وجلَّ والنَّاس؛ فأشرك في عمله بطلب حمد الله عزَّ وجلَّ وطلب حمد المخلوقين.

وسأل ابن أبي مغيث سعيد بن المسيِّب فقال: "أحدنا يصطنع المعروف يحبُّ أن يحمد ويؤجر؟ فقال له ابن المسيِّب: تحب أن تمقت؟ قال: لا. قال: فإذا عملت لله عزَّ وجلَّ عملاً فأخلصه".

وقال رجل لعبادة بن الصَّامت: "أقاتل بسيفي في سبيل الله تعالى أريد وجه الله عزَّ وجلَّ ومحمدة المؤمنين، فقال: لا شيء لك. فسأله ثلاث مرَّات، كلُّ ذلك يردُّ عليه لا شيء لك".

وقال الضَّحَّاك: "لا يقل أحدكم: هذا لله تعالى ولك، ولا يقل أحدكم هذا لله تعالى وللرَّحم، فإنَّه لا شريك له".

وضرب عمر رضي الله تعالى عنه رجلاً بالدُّرة ثمَّ قال: "اقتصَّ منِّي، قال: بل أدعها لله ولك، فقال له عمر: ما صنعت شيئاً، إما أن تدعها لي فأعرف ذلك، أو تدعها لله وحده، قال: ودعتها لله وحده، قال: فنعم إذاً".

فدَّلت هذه الآثار على أنَّ أعظم الرِّياء إرادة العباد بطاعة الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ أدناه إرادة المخلوقين وإرادة ثواب الله عزَّ وجلَّ.

قلت: بم يكون الرِّياء الذي يتشعَّب منه في القلب، وما الذي يهيجه؟ لأنه لو لم يكن له من قلب العبد أصل يتشعَّب منه ويهيجه، لم يقبل خطرات العدوِّ في ذلك، إذ يدعو إلى ما ليس في قلب العبد له محبّة ولا رغبة. قال: أجل! قلت: ما هو؟.

قال: ثلاثة عقود في ضمير النَّفس: ١ – حبُّ المحمدة. ٢ – خوف المذمَّة. ٣ – والضَّعة في الدُّنيا، والطَّمع لما في أيدي النَّاس.

قلت ما الدَّليل على ذلك؟.

قال: ما يجده العبد من نفسه أنَّه يحبُّ أن يعلم العباد بطاعته بربه عزَّ وجلَّ فيوصل ويعطى ويكرم، ويحب أن يحمد ويثنى عليه، ويعظَّم، ويكره أن يذمَّ، فيفعل الطَّاعة لئلا يذمَّ بقلَّة الرَّغبة فيها ...إلخ.

قلت: قد وصفت المعرفة بذلك وصفاً لم تهوِّنها في قلبي حتى خشيت أن تغلب علي، بل كنت أجد ذلك قبل أن تصفه لي، ولكن لم أعرف شرحه حتى شرحته لي، فما الذي يهوِّن المعرفة بما ينال به دفع هذه الخلال الثَّلاث ويصغِّرها ويحقِّرها، ويدل على عورات سوء عاقبتها، حتى يزهد العبد فيها ولا يعتقدها، ولا يكون لها في قلبه قوَّة فتضعف الخلال الثَّلاث التي تهيِّج على الرِّياء، ويُعرض عنها ومن أجلها.

قال المعرفة بخلَّتين:

١- لم أجده فيما لديَّ من مراجع.

إحداها: ما يُحْرَمُ ويُنْقِصُ من خوف الله تعالى وتوفيقه، وإصلاح قلبه في الدُّنيا، ومعرفته بما ينقص من ثواب الله عزَّ وجلَّ بذلك في الآخرة، وخوف مقته أن يطَّلع على قلبه وهو معتقد لواحدة منهنَّ.

والخلَّة الثَّانية: تحصيل ما ينال من العباد عند تحصيله لذلك مع ما ينزل به من الله عزَّ وجلَّ.

فأما الذي يُحرم به من الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا، وما ينزل به منه إذا اعتقدهنّ، فإنَّه يتحبَّب إلى العباد بالتَّبغُّض إلى الله عزَّ وجلَّ، ويطلب رضاهم بالَّعرُّض لسخط الله عزَّ وجلَّ، ويتزيَّن لهم بالشَّين عند الله عزَّ وجلَّ، ويتقرَّب إليهم بالتَّباعد من الله عزَّ وجلَّ، ويُحرم في الآخرة الثَّواب، ويحبط عمله في الدُّنيا، ويبطل أجره في يوم فقره وحاجته وفاقته.

فلا تسأل من تقطع نفسه بالحسرات والنَّدامة، إلا أن يكون أخلص قبل القيامة؛ إذا رأى موضع منفعة الإخلاص، وموقف ضرر الرِّياء، وإن كانت حسناته راجحة على حال لما عنده من العمل الخالص سوى ذلك، فقد خسر بعض حسناته التي تقرِّب من ربه عزَّ وجلَّ، ويعلو بها في جنَّته من سؤال الله عزَّ وجلَّ له وتوقيفه إياه على الرِّياء، والحياء منه أنَّه قَدَّم في الدُّنيا في عمله عليه غيره في الهيبة والمحمدة والتَّقرُّب، والتحبُّب بالتَّعرُّض للتَّباعد منه والتمقُّت إليه.

وما يناله في الدُّنيا بإظلام قلبه وخبث نفسه وزوال الرَّجاء عن قلبه إذا علم بريائه، وتشتُّت همومه في طلب حمدهم لا يحصر، لأنه كثير عددهم لا يحصى من يعامل منهم، ورضاؤهم لا يدرك، لأن بعضهم يرضى بما يسخط بعضهم، فإن فعل ما يرضي بعضهم سخط آخرون، وإن فعل ما يسخط بعضهم رضي آخرون، ولأن بعضهم يسيء الظن ويحمده بعضهم على ما يذمُّه آخرون، فرضى من يطلب منهم يسخط من يترك منهم، فقلبه مشتَّت، وهمومه كثيرة، لأنه لا يدرك منهم جميعاً ما يطلب"[1].

شهود على الطَّريق: شهداء خَبِروا الحياة ودورها، والأفكار ومذهبها، والطَّرائق ووسائلها، والعلوم ومنزلتها، فانتهوا إلى الحكم الحق على أهل الحق، وعرفوا الصِّراط المستقيم، والنُّور المبين، فشهدوا للقوم بعد التَّحقيق بكمال المذهب، ورسوخ الخُلق، وحسن التَّمسُّك، فإليك ما يقولون:

أ – شهادة الحارث المحاسبيِّ في القوم:

"أما بعد: فقد انتهى إلينا أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية، والله أعلم بسائرها.

فلم أزل برهة في عمري أنظر اختلاف الأمة وألتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله عزَّ وجلَّ بتأويل الفقهاء، وتدبَّرت أحوال الأمَّة،

١- نور التَّحقيق: ص١٥٣ – ص١٧٥. (بتصرُّف).

ونظرت في مذاهبها وأقاويلها فعقلت من ذلك ما قدِّر لي، ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً قد غرق فيه ناس كثير، وسلم منه عصابة قليلة، ورأيت كلَّ صنف منهم يزعم أنَّ النَّجاة لمن تبعهم، وأنَّ الهالك من خالفهم، ثمَّ رأيت النَّاس أصنافاً:

١ – فمنهم العالم بأمر الآخرة؛ لقاؤه عسير ووجوده عزيز.

٢ – ومنهم الجاهل؛ فالبعد عنه غنيمة.

٣ – ومنهم المتشبِّه بالعلماء مشغوف بدنياه مؤثر لها.

٤ – ومنهم حامل علم منسوب إلى الدِّين يلتمس بعلمه التَّعظيم والعلوِّ ينال بالدِّين من عرض الدُّنيا.

٥ – ومنهم متشبه بالنُّساك متَّجر بالخير لا غَناء عنده، ولا بقاء لعلمه، ولا معتمد على رأيه.

٦ – ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل.

٧ – ومنهم منسوب إلى العقل والدَّهاء ومفقودُ الورع والتُّقى.

٨ – ومنهم متوادُّون؛ على الهوى يتَّفقون، وللدُّنيا يتباذلون، ورياستها يطلبون.

٩ – ومنهم شياطين الإنس، عن الآخرة يصدُّون، وعلى الدُّنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفي الاستكثار فيها يرغبون، فهم في الدُّنيا أحياء، وفي العُرْفِ موتى، بل العُرف عندهم منكر، والسُّوء معروف.

فتفقَّدت في الأصناف نفسي، وضقت بذلك ذرعاً فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السَّداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر، وأطلت النَّظر، فتبيَّن لي في كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنَّة نبيه عليه الصَّلاة والسَّلام، وإجماع الأمَّة، أنَّ اتِّباع الهوى يُعمي عن الرُّشد، ويضلُّ عن الحقِّ، ويطيل المكث في العمى.

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي، ووقفت عند اختلاف الأمَّة مُرتادَاً لطلب الفرقة النَّاجية، حَذِرَاً من الأهواء المُردية، والفِرقة الهالكة، متحرِّزَاً من الاقتحام قبل البيان، وألتمس سبيل النجاة لمهجة نفسي.

ثمَّ وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزَّل أن سبيل النَّجاة في التَّمسك بتقوى الله تعالى، وأداء فرائضه، والورع في حلاله وحرامه وجميع حدوده، والإخلاص لله تعالى بطاعته، والتأسِّي برسوله صلَّى الله عليه وسلَّم.

فطلبت معرفة الفرائض والسُّنن عند العلماء في الآثار، فرأيت اجتماعاً واختلافاً، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره، الفقهاء عن الله العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه، المتأسِّين برسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، والمؤثرين الآخرة على الدُّنيا، أولئك المتمسِّكون بأمر الله وسنن المرسلين.

فالتمست من بين الأمّة هذا الصّنف المجتمع عليهم، والموصوفين بآثارهم، واقتبست من علمهم، فرأيتهم أقلَّ من القليل، ورأيت علمهم مندرساً كما قال

رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء"[1]، وهم المتفرِّدون بدينهم.

فعظمت مصيبتي لفقد الأولياء الأتقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفاجأني على اضطراب من عمري لاختلاف الأمَّة، فانكمشت في طلبي عالماً لم أجد لي من معرفته بُدَّاً، ولم أقصِّر في الاحتياط، ولم آل في النُّصح، فقيض لي الرؤوف بعباده قوماً وجدت فيهم دلائل التَّقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة على الدُّنيا.

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى، ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمَّة، لا يُرَجُّونَ أحداً في معصيته، ولا يقنِّطون أحداً من رحمته، يرضون أبداً بالصَّبر على البأساء والضَّراء، والرِّضا بالقضاء، والشُّكر على النَّعماء، يحبِّبون الله تعالى إلى العباد بذكرهم أياديه وإحسانه، ويحثُّون على الإنابة إلى الله تعالى، علماً بعظمة الله، وعلماً بعظيم قدرته، وعلماً بكتابه وسنَّته.

فقهاء في دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء، تاركين للتَّعمق والإغلاء، مبغضين للجدال والمراء، متورِّعين عن الاغتياب والظُّلم، مخالفين لأهوائهم، محاسبين لأنفسهم، مالكين لجوارحهم، ورعين في مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم، مجانبين للشُّبهات، تاركين للشَّهوات، مجترئين بالبُلغة من الأقوات، متقلِّلين من المباح، زاهدين في الحلال، مشفقين من الحساب، وجلين من المآب، مشغولين ببعثهم.

مؤثرين على أنفسهم دون غيرهم، لكلِّ امرئ منهم شأن يغنيه، علماء بأمر الآخرة وأهاويل الآخرة، وجزيل الثواب وأليم العقاب، وذلك أورثهم الحزن الدَّائم والهمِّ المضني، فشغلوا عن سرور الدُّنيا ونعيمها.

ولقد وصفوا لآداب الدِّين صفات، وحدَّدوا للورع حدوداً ضاق لها صدري، وعلمت أن آداب الدِّين وصدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهي، ولا يقوم بحدوده مثلي، فتبيَّن لي فضلهم، واتضح لي نصحهم، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة، والمتأسُّون بالمرسلين، والمصابيح لمن استضاء بهم، والهادون لمن استرشدهم.

فأصبحت راغباً في مذهبهم، مقتبساً من فوائدهم، قابلاً لآدابهم، محبَّاً لطاعتهم، لا أعدل بهم شيئاً، ولا أوثر عليهم أحداً، ففتح الله تعالى لي علماً انفتح لي برهانه، وأنار لي فضله، ورجوت النَّجاة لمن أقرَّ به أو انتحله، وأيقنت بالغوث لمن عمل به.

ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه، ورأيت الرَّين متراكماً على قلب من جهله وجحده، ورأيت الحجَّة العظمى لمن فهمه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً عليّ، فاعتقدته في سريرتي، وانطويت عليه بضميري، وجعلته أساس ديني، وبنيت عليه أعمالي، وتقلَّبت فيه بأحوالي.

١- رواه مسلم، رقم (٢٣٢).

وسألت الله عزَّ وجلَّ أن يوزعني شكر ما أنعم به عليّ، وأن يقوّيني على القيام بحدود ما عرّفني به، مع معرفتي بتقصيري في ذلك، وأني لا أدرك شكره أبداً"[1].

ب- شهادة الإمام الغزالي:

وهذه شهادة حجة الإسلام الغزالي: "إني علمت يقيناً أنَّ الصُّوفيَّة هم السَّالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأنَّ سيرتهم أحسنُ السِّير، وطريقتهم أصوبُ الطُّرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمعوا عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشَّرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم، ويبدِّلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النُّبوَّة؛ وليس وراء نور النُّبوَّة على وجه الأرض نور يستضاء به"[2].

المعرفة:

من أقوالهم في المعرفة[3]:

قال الإمام الغزالي: "المعرفة في اللُّغة: هي العلم الذي لا يقبل الشَّكّ. وفي العرف: اسم لعلم تقدمه نكرة. وفي عبارة الصُّوفيَّة: المعرفة؛ هي العلم الذي لا يقبل الشّكّ إذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته".

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السّلام: "أتدري ما معرفتي؟ قال: لا، قال: حياة القلب في مشاهدتي".

وقال ذو النُّون: "حقيقة المعرفة اطِّلاع الحقِّ على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار".

وقال بعضهم: "حقيقة المعرفة مشاهدة الحقِّ بلا واسطة، ولا كيف، ولا شبهة".

وسئل بعض العارفين عن حقيقة المعرفة فقال: "تخلية السِّرِّ عن كلِّ إرادة، وترك ما عليه العادة، وسكون القلب إلى الله تعالى بلا علاقة، وترك الالتفات إلى ما سواه".

قال الإمام الغزالي: "سرُّ المعرفة وروحها التوحيد. فإن قيل: ما علامة المعرفة؟ يقال: حياة القلب مع الله تعالى". وقيل: "حقيقة المعرفة نور يطرح في قلب المؤمن، وليس في الخزانة شيء أعزَّ من المعرفة".

وقال بعضهم: "إنَّ شمس قلب العارف أضوأُ وأشدُّ إشراقاً من شمس النَّهار، لأن شمس النَّهار قد تُكسف، وشمس القلوب لا كسوف لها، وشمس النَّهار تغرب بالَّليل دون شمس القلوب، وأنشدوا في ذلك:

إنَّ شمس النَّهار تغرب ليلاً ... وشموس القلوب ليس تغيب

١- الوصايا: ص٥٩-٦٤.

٢- المنقذ من الضَّلال: ١/١٧٧.

٣- روضة الطَّالبين: ص٥٤.

من أحب الحبيب طار إليه ... اشتياقاً إلى لقاء الحبيب

وقال الإمام الغزالي: "وأما المعرفة فهي نفس القرب، وهو ما أخذ القلبَ وأثَّر فيه أثراً يؤثِّر في الجوارح، فالعلم كرؤية النَّار مثلاً، والمعرفة كالاصطلاء بها".

وسئل بعضهم: "متى يعرف العبد أنَّه على تحقيق المعرفة؟ فقال: إذا لم يجد في قلبه مكاناً لغير ربِّه".

والقاعدة أو الحكمة أو الحقيقة التي عندهم والتي لا يختلف فيها اثنان، هي قولهم المشهور: "لا يمكن معرفة كُنهِ ذاته تعالى، ولا معرفة كُنهِ صفاته عزَّ وجلَّ، ولا يعرف من هو إلا هو تبارك وتعالى، ومن ادَّعى في الحياة الدُّنيا رؤيته بالبصر فقد كفر، إلا نبيَّنا عليه الصَّلاة والسَّلام، على الاختلاف بين العلماء".

عنايتهم بالمعرفة:

وإذا قرأت أقوالهم في المعرفة وجدتها من عمل الرُّوح والقلب، وهي ثمَّرة التَّزكية والتَّنقية، تملأ القلب بعد فراغه من الأغيار، وتسطع الأنوار أنوار القرب بعد محو الآثار[1]، فالمعرفة عندهم منتهى الغايات، وأمل الحياة، وراحة الأرواح، واطمئنان القلوب، لأنها تكشف حقيقة ما نحن عليه وما نحن فيه، فتريح البال من كلِّ تدبير، وتفرِّغ النَّفس من كلِّ تفكير، لكلِّ هذا كانت عنايتهم فيها قبل كلِّ شيء، وكلامهم عليها بعد كلِّ شيء.

حتى أنَّهم يُعلِّمون مريد الحقيقة لأول درس من دروس السُّلوك أن ينوي في عهده ومبايعته معرفة الله تعالى، لأنها عندهم غاية الغايات، ومنتهى القربات، ومن لم تحضره هذه النِّية، ويؤكدها بعزيمة الصَّبر والسَّير فليس بواصل، ولا يَشَمُّ من الطَّريق شمَّة.

ويرجع أصل عنايتهم في المعرفة إلى سببين اثنين:

الأول: أن المعرفة فرض عين على كلِّ مكلَّف، ذلكم الفرض ثابت في الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمَّة من العلماء.

الثَّاني: أنَّ الوظيفة بعد الخلق هي المعرفة.

ولئن سألتني تفصيلاً لهاتين الفقرتين؛ أقول إنَّنا على وعد في بحث الأدلة لنلتقي فنزيدك وضوحاً إن شاء الله تعالى، ولكن نقول الآن:

إنَّ غاية المعرفة هذه – التي انفرد بوجوبها وطريقة تحقيقها وتأييدها بالأدلَّة الشرعيَّة البيِّنة الإسلام – من أوسع البحوث التي يمكن أن يطرقها البشر بأجمعهم، بل ومن أصعبها فهماً وإدراكاً إذا سعينا إليها من غير بابها وآلتها، لأنها تقوم على فهم أصغر ذرَّة في الوجود، إلى مُنشئ الوجود، الأوّل الذي ليس له بداية سبحانه وتعالى.

وإذ قرّرنا هذا فلا بد لنا من وضع خطوط رئيسة تفهمنا ما هي المعرفة؟ وما هي عناصرها؟ وما هي وسائلها؟ وما هي مراتبها؟ وما هو طريق الوصول إليها؟

١- بمعنى إزالة التَّعلُّق.

ولزومها للمسلمين في مجتمع اليوم، وقد ضلوا طريقها وغفلوا عن مقام الإحسان ركيزة الإسلام الأولى والأخيرة.

ما هي المعرفة؟:

المعرفة لا تحتاج إلى تعريف، وكلُّ تعريف نحدِّد ونبيِّن به المعرفة هو بيننا وبينها حجاب، ويجعل من الموصوف المعرَّف تعدداً في الصُّور الذهنيَّة مع وحدة الشَّخصيَّة، فعندما أصف لك زيداً من النَّاس، أو لوناً من الأطعمة لم تعرفه ولم تذقه فإنَّك بحسب تعبيري تتصور زيداً، أو طعم ذاك اللَّون، وكلُّ من يسمع هذا الوصف يتصور كذلك صورة تتلائم مع إدراكه وفهمه، وهكذا نقع في مشكلة التشبيه والتعدد، والذي يحلّ لنا المشكلة من جذورها هو أن أجعلك والمعرَّف وجهاً لوجه.

ولمَّا كان موضوع معرفتنا هو الله تعالى، وهو تعالى موصوف لنا بكتب التّوحيد بجميل أسمائه وصفاته، وما يستحيل بحقه وما يجب، وهذا هو الوصف التعبيريِّ العقلي، الذي يقع من الأكثريَّة الغالبة بسبب التَّشبيه، ونعني به تلك الصورةَ الذِّهنيَّة عن الإله الموجود، والتي هي في حقيقتها باطلة حتماً، وإن كانت مقبولة شرعاً مع التَّنزيه نعود بذلك لمشكلة تعدُّد التَّصوُّرات السَّابقة.

ومن هذا الوجه – وجه المعرفة العقليَّة الوصفيَّة لله تعالى – يتساوى جميع النَّاس في توحيدهم، بل أدنى رجل يعتقد بـ(لا إله إلا الله) يدخل في مجموع النَّاس من جهة وحدة الاعتقاد، ووحدة الكلمة والإقرار، ومن هذا الوجه نستطيع أن نقول: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، أي اعتقاد الفكر مع التَّصديق بوجود الواحد ثابت بل متساوٍ عند الجميع، وهذه معرفة العوام، ويزيدهم المتعلِّم معرفة الصِّفات والأسماء، وكلُّ هذا لا يزال في حدود العقل، ولم يتجاوزه إلى دائرة الذَّوق الوجداني، وذلك لأن المعرفة العقليَّة خالية عن الحياة والشُّعور.

واعتقادنا أنَّ الله سبحانه ليس كمثله شيء، وهو منزَّه عن المثليَّة بذاته وصفاته، وأنَّه الواجب الوجود المحيط بكلِّ شيء؛ وهو بكلِّ شيء محيط، كيف يمكننا أن ندرك هذا بكلِّه وأن يلازمنا شعور باطني يقظ لا يغيب عن شعورنا لحظة: الوجود، والأحديَّة، والسَّمع، والبصر، والعلم، والقدرة ... إلى آخر ما سُمِّي به سبحانه واتَّصف، وهذا يَرُدُّ علينا ما قدّمناه، وهو أن تكون مع المعرَّف وجهاً لوجه، قد تقول؛ إنَّ المعرَّف هنا هو (الله)، ولا يمكننا رؤيته ولا معرفته مواجهة، نجيب بحديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، حديث الإحسان السَّابق ذكره: "كأنَّك تراه".

وكأن نشعر هنا بأنَّ الرُّؤية ليست بصريَّة، وهو الصَّحيح لأن البصر يختصُّ بالمحسوسات، ولو وقع الله تعالى تحت الحسِّ لثبتت مادِّيته؛ وذلك مستحيل، فإذاً إنَّما الرُّؤية بحاسَّة سادسة، بلطيفة ربَّانيَّة خلقها الله تعالى فيك، سنبحث فيها في موضوع: (وسائل المعرفة).

عناصر المعرفة:

لمَّا كان موضوع معرفتنا الله عزَّ وجلَّ وهو تعالى موصوف لنا بجميل الصِّفات وخير الأسماء التي تعتبرها العلماء واجبة فيه تعالى، وواجب اعتقادها لكلِّ من يدخل في الإسلام حتى يخرج من كونه كافراً، كان لا بد إذاً للمعرفة من أساس اعتقادي عقلي محض، وهو الذي يسمى (الإقرار) بتلك الذَّات وصفاتها وأسمائها على التَّنزيه.

ومن ثمَّ فإن هذا الاعتقاد العقلي المحض؛ لا يكون حيوياً شعورياً حافزاً ومنتجاً إلا إذا كانت تلك المعرفة العقليّة يغذّيها الوجدان والذّوق والعاطفة، ولا يمكن للوجدان أن يستيقظ وينبع ويفور بالمعاني إذا صادف فراغاً من الوهم، بل لا بد لهذا من تجاوب مع الموجود وتكشُّف لحقائق العقائد العقليَّة، وعشق للذَّات والصِّفات والأسماء، وتسليم للأفعال حتى يتمَّ الإيمان ويكمل الاعتقاد، ويثمَّر ثمَّرته المنتجة اللَّازمة، فنحن بعد هذا التقرير إذاً نستطيع أن نقسِّم عناصر المعرفة إلى عنصرين اثنين:

١- العنصر العقلي: وهو الأساس الذي تبنى المعرفة عليه، والقاعدة التي يرفع بناؤها فوقه.

٢- والعنصر الشُّهودي أو الإحساني أو الرُّوحي: وهو البناء بكامله، وهو السّقف والجدران والباب وكلُّ شيء.

فأما العنصر العقلي: فهو أن نعتقد بأن الله تعالى موجود، وقديم، وباقٍ، ومخالف للحوادث، وقائم بنفسه، وواحد، وأنه حيٌّ، وعليم، وقادر، ومريد، وسميع، وبصير، ومتكلِّم، فهو إذاً موصوف: بالحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسّمع، والبصر، والكلام، وهذه هي الصِّفات؛ مع العلم أنها واحدة، ومنزَّهة.

وأما الأسماء: فهي تسع وتسعون اسماً كما ورد في الحديث[1]، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها.

وأما الذَّات: فليس كمثلها شيء.

وأما الأفعال: فلا تشبه أفعال المخلوقين ولا تعلَّل.

وهذه هي معرفة العامّة المفروضة على كلِّ مكلَّف، بل هي أوَّل الفرائض على الإطلاق.

وأما العنصر الرُّوحي: فهو تكشُّف تلك المعاني تكشُّفاً يثبت فيه اليقين، ويزول معه الشّكّ، وترسخ فيه الحقيقة، فلا يعود الإيمان قابلاً للمدّ والجذر، والعمار والخراب، فهذه إنَّما هي صفات إيمان العقيدة العقلي، (.....)[2]، وسنبيِّن لك بَعْدُ هذه المعرفة وما يكشف للسّائر إليها والسَّاعي في مدارجها، ولكنَّا سنظهر الآن ما المراد من المعرفة التي يدعو إليها القوم.

١- رواه البخاري، رقم (٧٣٩٢).

٢- كلام مطموس غير مقروء.

ما مراد القوم من المعرفة؟:

من قرائتك لتعريف المعرفة السَّابق تستطيع أن تعرف مراد القوم من المعرفة، وخاصَّة أنَّ المعرفة العقليَّة كما ذكرت شرط لازم لا بُدَّ منه للدُّخول في حظيرة الإسلام، فهي بَدَهِيَّةُ الوجود عند عامَّة المسلمين، أما المعرفة التي يعنيها القوم، ويركضون ورائها، ويبذلون مهجهم وأرواحهم ويقطعون أوقات فراغهم بالاشتغال من أجلها، والعمل على تحصيلها، والتّحقق بمعانيها ذوقاً ووجداناً وحالاً، إنّما هي إيمان اليقين الحاصل بنور البصيرة.

هذه المعرفة وهذا النَّوع من الشُّعور الذَّاتي بفاعليَّة الإيمان والعاطفة الدِّينية، إنما يحصل عندما ينتقل الإنسان من عالم الحسّ إلى عالم الغيب، ومن عالم التَّردُّد والشَّكِّ والوهم إلى عالم الحقِّ واليقين، ومن عالم الأغيار والظُّلمة إلى المعنى والنُّور، ومن العادة وضوضائها إلى الأنس بالله تعالى والقرب منه، والشُّهود بأحدَّيته والتَّحقُّق بفردانيَّته.

قال أحد العلماء: تقوية الصِّلة بين الوجدان الإنساني والخالق جلَّ وعلا حتى يصل الإنسان بذلك إلى نوع من المعرفة الرُّوحية هو أعذب وأصدق أنواع المعرفة جميعاً.

وذلك أنَّ الوجدان الإنساني أقدرُ على كشف المستورات غير المادِّيَّة من الفكر المحدود بقيود المادَّة ونتائج الأقيسة الحسيَّة، فالإسلام كثيراً ما يخاطب الوجدان ويستثير الخواصَّ النَّفسانيَّة الكامنة في الإنسان لتسموا إلى حظائر الملأ الأعلى، وتستشعر لذَّة معرفة الله تبارك وتعالى: {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب}، (الرَّعد: ٢٨).

إنّما يريد القوم من المعرفة الذَّوقية والإيمان الشُّهوديّ أن ينمو الإيمان ويزداد اليقين، وينجلي الصَّدأ عن عين البصيرة، حتى تنكشف للرّوح أنوار الملأ الأعلى ويستغرق القلب بأنوار الجلال والجمال، ويتحلّى عندها بحلية المعرفة والإيقان.

يريد القوم سقاية القلب من ماء الحياة وعين اليقين حتى تدب فيه الرُّوح، وتتفتح فينكشف الحجاب بين المرء وربه عزَّ وجلَّ؛ حجاب النَّفس والهوى، فيكون دائم الصِّلة بالله تعالى يشعر بها ويتذوق حلاوتها ويقطف من ثمَّرتها حتى يصير كلُّ شيء بالنِّسبة إليه محراب، وكلُّ مكان مصلَّى، فهو بذلك لا يبرح المحراب ولا يفارق المصلَّى أينما توجه بوجهه، وتأمَّل بفكره، فهو مع الله تعالى في الباطن، ومع الخلق في الظاهر، مع الله بقلبه وروحه، ومع الخلق بجسمه وحواسِّه.

أشرقت عليه أنوار الحضرة القدسيَّة، وغمرته بجمالها، واجتذبته من نفسه إليها، فلا يرى إلا النُّور ولا يعيش إلا فيه.

هبَّت على ذاته النَّفحات، وانقشعت عنها الحجب وزالت الظُّلمات، فهو إن سار فبالله يسير، وبه وإليه يعمل، رأى الله تعالى قبل كلِّ شيء، وفي كلِّ شيء، وبعد كلِّ شيء بعين بصيرته رؤية تقديس وتنزيه لا رؤية تشبيه وتمثيل.

إنهم يريدون من هذه المعرفة أن يصلوا إلى التّوحيد الصِّرفي، ويتغلغلوا في بحار الحقائق الزَّاخرة بالمعارف والعلوم، فتنزل على قلوبهم الرَّحمات، وتهبُّ عليهم النَّسمات، ويهبهم الله تعالى من خزائن رحمته وإحسانه فيزدادوا به علماً ومنه قرباً، إذ العلم به بحر زاخر له بداية وليس له نهاية ولا يزالون يترقَّون في مدارج الكمال حتى يصلوا بأرواحهم المشرقة النيِّرة إلى نور الأنوار ومبدأ الكلِّ وينبوع الرَّحمة وهو الله جلَّ جلاله، إنَّها لحالات قرب منه سبحانه ذاق بها طعم الإيمان وعرف حلاوته من سار سيرهم، ونهج نهجهم، وحُرِمَهَا من أنكرها عليهم واستدبرهم في سيرهم.

المعرفة العقليَّة مقياس المعرفة القلبيَّة:

ثمَّ إنَّ الإيمان الشُّهودي الذي يصلون إليه، ودرجات اليقين التي يتحقَّقون بها بحيث ينكشف المعلوم انكشافاً لا يبقى معه أيُّ شك، لا يتناقض مع العقيدة العقليَّة التي تنال بمجرد التّصديق بالقلب، حتَّى إنَّ المعرفة العقليَّة بالنِّسبة لذات الله عزَّ وجلَّ وصفاته هي مقياس المعرفة الذَّوقية وميزانها، كما تقدَّم في البحث عن تمسُّكهم بالكتاب والسُّنَّة.

وإنَّ ما يحصل لهم من إلهام وكشف لا يقبل إلا إذا وافق الكتاب والسُّنَّة، وقد قال شيخنا السَّيِّد محمد الهاشميّ رحمه الله تعالى: "لا بد للسَّائر من دراسة التَّوحيد منذ البداية طبقاً لعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة – وكان أشعريَّ العقيدة –، حتى يقيس ما يحصل له ويعرض على العقيدة العقليَّة، فإذا خالف ردّه، لأن الله عزَّ وجلَّ سوف يسألنا عن هذه العقيدة لا عن هذا الكشف". انتهى.

وقال رحمه الله تعالى: "إنَّ من كانت عقيدة أهل السُّنَّة واضحة في ذهنه يكون فتحه أحسن، ومعرفته الذَّوقيَّة أكمل".

لذلك نرى أنَّ الإمام السّنوسي يقول: "إنَّ ممَّا منَّ الله تعالى به على أهل السُّنَّة فلم يقعوا بما وقع به غيرهم أن كوشفوا بالحقائق كما هي فكانت موافقة لعقيدتهم"

وقال أيضاً: "وأما أهل السُّنَّة رضي الله تعالى عنهم فقد نوَّر الله تعالى بصائرهم، ولم يفتتنوا بشيء من الأكوان، وكوشفوا بالحقائق على ما هي عليه في نفس الأمر، وهذه هي المكاشفة التي يخصُّ الله تعالى بها أولياءه، حتى ينجّيهم من آفات الكفر والبدع في أصول العقائد"[1].

وبالأحرى سلوك القوم رضي الله تعالى عنهم ليصلوا إلى العقيدة والإيمان بطريق الكشف؛ فيغنيهم عن الدَّليل والبرهان.

قال أحد العلماء: "إنَّ القلب الإنساني إذا صفا وأشرق تذوَّق حقيقة لذَّة الإيمان بالله تعالى"، ولقد سئل أحد العارفين عن الأدلَّة التي أقنعته بالإيمان بالله تعالى فابتسم وقال: "أغنى الصباح عن المصباح، متى احتاج النَّهار إلى دليل".

١- مفتاح الجنَّة: ص١٢٦-١٢٧.

آلة المعرفة: وسائل المعرفة في الحقيقة معروفة ابتداء؛ وهي الحواسُّ الخمسة، في مجال المحسوسات فقط، حيث إن الحواسّ لا تتعدَّى ما يُرى ويلمس ويسمع ويشمُّ ويذاق، فنريد – وبحثنا معرفة المغيِّر – حاسة تماثل وتدرك ذلك العالم، وتستطيع النفوذ إليه، بل إن الحواس في مجال إدراكها معرفتها نسبية لا يمكن الاعتماد عليها، فكيف في غير مجال الاختصاص، والله عزَّ وجلَّ منزَّه عن الجوهريَّة والعرضيَّة.

وإذا أبطلنا إمكانيَّة المعرفة عن طريق الحواس، والمعروف أنَّ العقل إنَّما هو بحيرة فارغة تصب فيها الأنهار الخمسة من الحواسِّ بمعارف اختصاصيَّة لكلِّ حاسَّة، ثمَّ تتشكَّل الفكرة وينعقد الإدراك في العقل لما وصله من المعارف فيطلق الأحكام، ولما كانت هذه المعارف للحواسّ نسبيَّة، ستكون بالتَّأكيد أحكام العقل تقريبيَّة، فهو إذاً عاجز عن إدراك حقائق الأشياء المحسوسة المادِّيَّة، فكيف به أن يعلم الغيب، ويدرك ما وراء المادِّيات؟.

يقول أحد العلماء: "والفكر الإنساني بإجماع المفكرين والعقلاء قاصر عن إدراك كنه ما يحيط به من الموجودات الحسيَّة جميعاً، فضلاً عن القوى والكائنات التي لا تقع تحت حسِّه، وإن كان مجبولاً على مواصلة البحث والنظر، وتلك هي مهمَّته ووظيفته التي لا تنفكُّ عنه، ولا ينفكُّ عنها، على أنَّ قصارى ما يصل إليه؛ معرفته بمعنى المزايا والخصائص والصِّفات.

أمَّا الحقائق المجرَّدة والماهيَّات البسيطة فلم تقع في دائرة إدراكه بعد، والذي يقوله الرَّاسخون في العلم: إنها لن تقع في إدراكه، وأنَّه كلَّما حاول بحكم طبيعته الوصول إليها، والحصول عليها، أفلتت وتركت بين يديه بعض خصائصها وصفاتها.

العقل الإنساني لم يدرك بعد شيئاً من حقائق العناصر البسيطة، وكلَّما أوغل في الجري وراء حقيقتها انقلبت أمامه إلى مركَّبات تُضاعف جهله بها، وبعد أن كان أمام عنصر واحد يجدُّ في البحث عن حقيقته يصبح أمام عنصرين أو أكثر عليه أن يبحث عن حقائقهما من جديد.

وقُلْ مِثْلَ ذلك في ماهيَّة القوى الكونيَّة التي تبدو في الحياة واضحة كلَّ الوضوح بآثارها، مجهولة كلَّ الجهالة بحقيقتها، فالكهرباء والمغناطيسيَّة والأثر والجاذبيَّة إلى غير ذلك من الأسماء والألفاظ والفروض والمصطلحات التي اخترعها الفكر الإنساني ليستر بها حقيقة جهله؛ {وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً}، (الإسراء: ٨٥).

والعقلاء جميعاً متَّفقون على أن قصور العقل عن إدراكه كنه حقيقة من الحقائق أو جهله بها ليس معناه عدمها أو خفاؤها، فهي واضحة كلَّ الوضوح بآثارها وخصائصها، خفيَّة كلَّ الخفاء بأسرارها ودقائق ماهيَّتها.

إنَّ الفطرة الإنسانيَّة السَّليمة تهتف بالإنسان دائماً وأبداً أن يتعرَّف إلى الله تعالى، وكلُّ مظاهر هذا الكون وموجوداته بما فيها نفس الإنسان لا تجد أمام الفكر

الإنساني أي مجال لإنكار وجود الله تعالى، وعظمة الله تعالى، والدّلالة الواضحة على الله تعالى".

وقال في موضع آخر: "فقصور العقل الإنساني عن إدراك حقيقة ذات الخالق وصفاته، وقصور الحواسِّ الإنسانيَّة الكليَّة عن الوصول إلى شيء من ذلك ليس معناه العدم والجحود والإنكار، وكما سلَّم العقل الإنساني والحسُّ الإنساني بما لم يدركه من هذه القوَّة المحيطة به، فإن لزاماً عليه أن يسلِّم بربِّ هذه القوى ويسلِّم وجهه إليه؛ {وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ}، (الأنعام: ٧١).

ما وسيلة المعرفة إذاً والإنسان ما تعدَّى أن يكون عقلاً وجسماً فيه الحواسّ؟ ومادُمْنَا مكلَّفين بالمعرفة ففيما تعلَّقت؟ وعلى ماذا أنيطت؟.

إنَّ المعرفة لم تتعلَّق بالحواسِّ أبداً، وهذه حكمة بالغة عجيبة من الله تعالى، ذلك لأنَّ النَّاس متفاوتون في وجود الحواسِّ كما هم متفاوتون فيها قوَّةً وضعفاً، فإذا كان الله تعالى لم يربط المعرفة بالحواسِّ لأنها لا تبصر إلا المادَّة، وتنزَّه الله تعالى عن ذلك؛ فإن من العدل المطلق أن يتساوى النَّاس في أمر أُمروا فيه مساواةً نسبيَّة.

ولو ربطها بالحواسِّ لكان التَّفاوت كليّاً حتماً، وذلك لأن الذي يملك جميع الحواسِّ يكون عارفاً أكثر وأقوى ممَّن فقد حاسَّة أو حاسَّتين، ولكان قويُّ البصر والسَّمع والشَّمِّ واللَّمس أقوى معرفة من ضعيفها، ولكان للذي يستعمل الأدوات المزيدة في الحواسِّ قوةٌ أعرفُ ممَّن لا يملك ذلك، أي ولكان الغنيُّ أعرفَ من الفقير، وهذا كلُّه باطل، لم يقصده الإسلام، ولا يعتبره بميزانه، فإنَّ التَّكليف لا يناط بالغنى والفقر، ولا الإبصار والعمى، ولا بالقوَّة والضَّعف.

لهذا كلِّه أي بما أنَّ موضوعنا معرفة المغيِّر وهو تعالى أن يكون مادَّة فعجزت الحواسُّ المادِّيَّة عن إدراكه، وبما أنَّ هذه الحواس إنَّما هي نسبية في معرفتها، وتقديريَّة في اختصاصها، وهي مشتركة بين الإنسان والحيوان، وبما أنَّ المعرفة عزَّت أن تتعلَّق بالحواسِّ للتَّفاوت الكبير بين بني البشر في وجودها وقوَّتها، قد جعل الله تعالى التَّكليف مُناطاً بالعقل والمعرفة بالصِّفة الإنسانيَّة الذَّاتيَّة فقط، وهذا هو محض العدل، فأنت كما خلقك الله تعالى وأحسن صنعك وركَّبك من مادَّة وروح، والآيات التي تثبت هذا كثيرة منها:

١ – {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُون * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين}، (الحِجر: ٢٨-٢٩).

٢ – {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين}، (ص: ٧١-٧٢).

بل إنَّ المادِّيَّة ظاهرة فيك وواضحة، والمعنويَّة مبطَّنة خفيَّة يدل لوجودهما ما فيك من معنويات: حبّ – بغض – خوف – قلق – رغبة – رهبة.

فهذه كلُّها آثار وجود الرُّوح فيك، وهي مشتركة بينك وبين الحيوان، فإن في الحيوان روحاً كما في الإنسان، وليس في النَّبات ذلك، وهذه التي في الحيوان هي التي

يسمّيها الغربيون "الغريزة"، فإنهم متى عجزوا عن المعرفة نسبوا ما جهلوه إلى الغريزة، وكأن الغريزة عندهم كقدرة الله عند جاهلي الأسباب، والمعروف أنَّ المادَّة المحضة لا تحبُّ ولا تبغض مادَّة، فمن أين جاءتك هذه إن كنت مادَّة محضة؟ وثمَّ من هذا الذي تراه في منامك كنسخة عنك يروح ويغدو ويأكل ويتحرَّك ويتألَّم إذا نزلت به مصيبة، ويرى ويسمع ويطير ويهبط ...؟.

وقد يأتيك بأخبار المستقبل واضحة جليَّة كأنَّه عارف بالغيب، هذه كلّها دلائل اللَّطيفة الرَّبانيَّة التي أودعت فيك من سرِّ نفخة الله تعالى، فأنت كإنسان إذاً فيك روح، وكمادة فيك حواس، كلٌّ يدرك ويعرف اختصاصه بحسب المجالسة، الحواسُّ تتعلَّق بالمادِّيات، وذلك عند إشراقها النُّوراني، وفي الحديث: "لولا أنَّ الشَّياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السَّماء"[1].

فالرُّوح هي أداة معرفتنا الحقيقيَّة لتلك العوالم، وبالتَّالي لله تعالى، وهي متعلّقة بالصِّفة الإنسانيَّة، فكما أنَّ كلَّ إنسان فيه روح؛ فكلُّ إنسان ممكنة له المعرفة، وهذا هو العموم الذي أراده الله تعالى من التَّكليف، فإنَّ الأرواح متجانسة نورانيَّة، ومعرفتها بالتَّالي كشفيَّة مدركة، وهي بالنِّسبة للجميع مختلفة نسبيَّاً باختلاف الأشخاص والأرواح، وليس فيها ذلك التَّفاوت الشَّاسع، والفرق البيِّن كما في معرفة المحسوسات.

ونقف هنا لنقول: إنَّ وجود الرُّوح – وقد ربط الله تعالى المعرفة بها وجعلها وسيلة معرفته – لم يربط الوجوب المطلق بوجودها، بل هذا لا يصحّ أبداً، ولو صحّ لكلّف المجنون بالمعرفة، بل الحيوان؛ لأنَّ فيه روحاً كما مرَّ وكما هو معروف.

بل أسَّس الإسلام أمره على ركيزة العقل، وأناط التَّكليف به، فيصحُّ الأمر إن وجد؛ ولا أمر إذا لم يوجد، فهو إذاً بعد أن خلق فيك أداة معرفته خاصَّة وهي الرُّوح، ربط الوجوب بواعٍ مدرك عاقل يلتقط الخطاب، ويعرف المقام، ويعقل التَّكليف، فما هي هذه الرُّوح وقد عرفنا أنَّها أداة المعرفة ووسيلتها؟.

الرُّوح:

الرُّوح هي تلك اللَّطيفة الربَّانية التي فيها سرُّ حياتك وسرُّ إنسانيَّتك، وهي المتنقّلة معك في العوالم لا تفنى ولا تبلى، والرُّوح ككلٍّ تناظر الجسم ككل.

وكما أنَّ للجسم المادي قلباً هي مضخَّة الدَّم، كذلك للرُّوح مركز هو القلب على رأي من فصَّل، وكما أنَّ للجسم أدوات إحساس وشعورٍ هي الحواسّ، يرى، ويسمع، ويشمّ، ويذوق، ويلمس بها، كذلك للقلب رؤية، وسمع، وشمّ، وذوق، وإحساس.

كل هذا مع اعتبار الاختلاف في اختصاص كلٍّ من الطّرفين، ونعني بالقلب: ذلك المعنوي المناسب للرُّوح، والمنطبق على القلب المادِّي مكاناً، وإن كان أكبر

١- قال العراقي: رواه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه. (المغني عن حمل الأسفار: (٦٠٨/٢)).

من سعته وغيرهُ شكلاً وهيأة، وسنرى ببحث مفصَّل عن القلب خصائصه بالتَّفصيل إن شاء الله تعالى.

القلب:

هو غريب الغرائب، وعجيب العجائب، أضاعه المسلمون في العصر الحاضر وهو موجود، وفقدوه وفيه سرُّ الحياة والإيمان، فأنت لو سألت مسلماً: أين قلبك؟ لظنَّه المادِّي اللَّحمي، الذي يحوي الدَّم ويموُّل الجسم بالغذاء، ولو ذكرت له القلب المعنوي لأنكر وجوده، لأنه لا يشعر به، ولو حملنا قولهم على القرآن لوجدناه صريح المخالفة، إذ يعيّن القرآن مكان القلب أنّه في الصّدر، فهو وعاؤه، وذلك حتى لا يظن ظانٌّ غير ذلك: {إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصُّدور}، (الحجّ: ٤٦).

والعمى لا يوصف له ذلك القلب اللَّحمي، وليست وظيفته الإبصار ولا الاعتبار، وإذا كانت العين في الرّأس لا في الصّدر وهي التي تبصر فلمن العمى إذاً؟ أللعين وهي ليست في الصَّدر؟ أم للقلب اللَّحمي وهو في الصَّدر لكنَّه ما كلِّف قطُّ بالإبصار؟ إنَّه القلب المعنوي بعد الكفر والضَّلال، والوقوف مع المادّيَّة الجامدة.

ولقد سقنا هذه الآية فقط لتبيان مكان القلب، وأنَّه في الصَّدر بالنَّص لا بالبرهان على إبصاره وعماه، وإلا فإنَّ للقلب خصائص ليست لغيره، تريك أنَّه ككلٍّ هو وعيك، وعقلك، وتفكيرك، وإبصارك للحقائق، وسماعك للهدى، وفيه استجابتك للنُّور، وعليه سلامة الآخرة، وحياة السّعادة، وهو مستودع كلِّ داء، وسبب كلِّ بليَّة، وفي عماه الضَّلال عن الطَّريق، والصَّمم عن الحق، وبالتَّالي ضياع للآخرة، وهو على درجات من حيث قسوته ولينه ورقَّته، ومن حيث وجود نور الإيمان فيه وعدمه، ومن حيث صفات القلب المؤمن، وصفات القلب الكافر، وصفات القلب المنافق.

مراتب المعرفة:

قبل الكلام على مراتب المعرفة لا بد من مقدِّمة بسيطة تتعلَّق بعلم التَّوحيد:

في علم التَّوحيد يقسِّم العلماء الوجود إلى قسمين اثنين باعتبار صفة الموجود؛ فالوجود:

١ – إمَّا وجود ذاتي.

٢ – وإمَّا وجود عرضي.

لأنَّ الموجود؛ إمَّا موجود لذاته (أي واجب الوجود)، وإمَّا ممكن لذاته. والأوَّل: الذَّات الإلهية المقدَّسة. والثَّاني: كلُّ ما سواه من الممكنات، وكلُّها ممكنات.

والمعروف أنَّ الممكن يحتاج في ماهيته ووجوده وجميع صفاته إلى الواجب الذَّاتي، ولولاه لبقي على أصل العدمين، لأنَّ الممكن ما استوى وجوده وعدمه، فلا بدَّ من مرجِّح يرجِّح الوجود على العدم، أو العكس، وليس إلا الواجب الذَّاتي.

وفي علم التَّوحيد إنَّ معنى: "لا إله إلا الله" في عقيدة أهل الحقِّ (أهل السُّنَّة والجماعة) أنه تعالى: واحد في ذاته التي ليس كمثلها شيء، وأنَّه عزَّ وجلَّ واحد في صفاته التي ليس كمثلها شيء، وواحد في أفعاله التي ليس كمثلها شيء، وأنَّه واحد في أسمائه ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها.

وبما أنَّ بداية المعرفة من شاطئ هذه الكلمة؛ ونهايتها باقتناص الياقوت والمرجان من بحرها، فسنوضِّح ونبيِّن مراتب سلوك القوم في معرفة "لا إله إلا الله".

أ – الوحدة في الأفعال:

ممَّا لا شكَّ فيه؛ أنَّ الله تعالى واحد في أفعاله من حيث كونها ليس كمثلها شيء، فلا تشبه أفعال المخلوقين؛ خالية عن الغرض، وعارية من الواسطة والآلة، ومن حيث إنَّ الفاعل المطلق الوحيد في هذا الوجود هو الرَّبُّ عزَّ وجلَّ، فهذه فكرة وتلك عقيدة عقد عليها العقل وصدقها القلب، فما مدى تجاوبِ النَّاس معها؟ وما مدى تأثُّر أفعالهم السُّلوكية بها وكيف هي عند القوم؟ وما مدى تأثُّرهم بها؟.

أنت إذا عاشرت النَّاس ومازجتهم وجدت عندهم واقعاً لا ينكره فاحص لأوَّل نظرة، ألا وهو تعدُّد الفاعل وكثرة المفعول، لقد ضلَّ النّاَس في كثرة الأفعال ضلال علماء النَّحو في حصرها وعدِّها، وتاهوا في بيداء الفاعل ضلال الحضري في صحراء التِّيه.

فلو طلبت من عالم النَّحو أن يحدِّد لك الفاعل لعجز، ولو سألته حصر الأفعال لاعتذر، ولو أردت منه تحديد المفعول لما استطاع، ولو سألت علماء التَّوحيد لاختصروا الطَّريق وأبانوا لك الحق، فما في الوجود عندهم إلا فاعل واحد (وهو الواجب الذَّاتي)، وليس فيه سوى مفعول (وهو الممكنات)، فلماذا نطيل الطَّريق ونلوي السَّبيل ونموُّه الحقيقة؟.

لقد اعتقد القوم وحدة الفاعل كما هي عقيدة أهل الحق، ولكنهم لم يكتفوا أن تمثّلوا الحقيقة اعتقاداً، بل حاولوا كشفها ومشاهدتها عياناً، فساروا في طريق وحدة الأفعال؛ فوجدوا وحدة الفاعل، وكشفوا حجب الأسباب بأنوار بصائرهم فعاينوا الحقيقة، واستنارت جوانب أرواحهم فعاشوا في الحياة في طرب ما مثله طرب، وراحة ضمير لم يسبقهم إليها سابق، لا تكدِّر صفو حياتهم نكبات الحياة، ولا تعكّر اطمئنانهم فتن البلاء، ولا يعرفوا للهمِّ في ذواتهم موضعاً، فما سكنت والهمَّ يوماً بموضع.

وهم مع هذا لم يقعوا في الجبر، ولم يعطِّلوا الأسباب، ولم يستسلموا لمنكرات الحياة، فما من شيء في الوجود إلا بعلمه وإرادته وقدرته، ولا يقع فيه إلا ما يريد، ولا يظهر فيه إلا ما أبرزته قدرته.

وخالقٌ لعبده وما عمل ... موفِّقٌ لمن أراد أن يصل

ولكن للإنسان جزء اختياري هو الكسب، وإنَّما قدَّر عليك وقد علم أيَّ السبيلين تسير، وأيَّ النَّجدين تنهج وتختار.

قال شيخ شيخنا سيِّدي محمَّد الهاشمي عليه رحمة الله تعالى:

"وبالجملة فإنَّ ذوات الأسباب العاديَّة ثابتة شرعاً وعقلاً، والتأثير منفيٌّ عنها شرعاً وعقلاً، فمن نفى ذوات الأسباب العاديَّة فقد عطَّل حكم الله تعالى، ومن نسب التَّأثير للأسباب العاديّة فقد أشرك بالله تعالى، والمؤمن الموفَّق بفضل الله تعالى من أثبت ذوات الأسباب بإثبات الله تعالى إيَّاها، ونفى عنها التَّأثير لانفراد الحقِّ تعالى بالإيجاد والإمداد"[1].

وهم ينكرون المنكر ويزجرون فاعله باللِّسان والقلب، لأنَّ تلك أوامر الشَّريعة، ومن جانب آخر يرون إرادة الله تعالى في هذه الأفعال فيخشونه أشدَّ الخشية، ويسألونه السَّلامة، ويرجون التَّوبة والرَّحمة لكلِّ إنسان، فتكون ثمَّرة هذه الوحدة ألا يضلَّهم غرور الطَّاعات، ولا يشعرهم بالتَّميُّز عن غيرهم كونهم في المخالفات، ولا يعرفون شيئاً من الكدورات. تلك هي وحدة الأفعال، وهذه آثارها فأين النَّاس من القوم؟ وأين القوم من النَّاس؟.

ب – الوحدة في الصِّفات:

ويرتقي مريد الحقيقة في وحدة الأفعال حتى يشهد وحدة الصِّفات، فتشرق في ذاته أنوارها وتنجلي في مرآته أسرارها، وكيف لا وقد شهد تعلقات الصِّفات خارج ذاته وقت إذ استشعر وحدة الفاعل في هذا الكون.

ملاحظة: الواجب واجب، والفقر الذَّاتي ذاتي.

يشهد وحدة الصِّفات في آثارها، وتعدُّدِهَا وتبيانها في كثرتها، فكلُّ صفة تشكِّل وحدة؛ قدرة واحدة، وإرادة واحدة، ولكلٍّ تعلُّقات، وكلٌّ تُباين سواها من الصِّفات، فإذا سمع سمع بالله تعالى، وإذا أبصر أبصر بالله تعالى، وإذا مشى مشى بالله تعالى، وإذا تكلَّم تكلَّم بالله تعالى، مستشعراً تعلُّقات صفاته فيه، مع الحبِّ المشتعل، والعشق المتَّصل، والتبادل شعار هذا المقام "يحبُّهم ويحبُّونه"، تبادل الحبّ حتى أحبَّه، والعشق المتزايد علامته، والهوى سلطانه، حتى يرتقي إلى شهود أنوار الذَّات بعد الصِّفات.

جـ – الوحدة في الذَّات:

يا واحداً في الذَّات ليس كمثله ... ذات ولا حقٌّ سوى مجلاه

يا أحديَّ الذَّات؛ نشهد أنك واحدها على شهادة السَّيِّد الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، ننزِّهك عن التَّعدُّد المنفصل، والتجزُّؤ المتَّصل، وكفى بالله شهيداً محمد

١- مفتاح الجنَّة: ص٣٣.

رسول الله، أنت أنت، الواجب الوجود الذَّاتي، فوجودك الحقّ، استثنيت عن المحلِّ والمخصِّص، وكنت ولا شيء، وأنت على ما أنت، وما سواك من الممكنات شعارها الفقر الذَّاتي، وحاجتها إليك على الدَّوام، لأنه يستوي عدمها والوجود، وأنت المرجِّح.

هذه عقيدة أهل الحقِّ؛ تكاد ترى الواقع مخالفاً لها ومبايناً، فأنت أراك تعتقد بوجودي أكثر من وجود الله تعالى، وأنا الممكن، وتسلّم بداهة بي بلا طلب برهان، بينما أراك تطلب على الله الدَّليل، وتحتاج إلى الحجّة، وهو الواجب، فبماذا تعلّل هذا وذاك؟.

القوم لم يقفوا عند العقيدة فيجمدوا عليها بلا ذوق، وإنَّما طلبوا من ذواتهم الحقيقة، وألحُّوا على كشفها كما هي، فوصلوا إلى التَّوحيد الصِّرف، وشهدوا في بواطنهم أنَّ كلَّ ما سوى الله تعالى مفقود لا وجود له في عين الواقع، وأنَّه عدم محض، لأنهم كشفوا الوجود العرضي في صفة إمكانه بالنّسبة للوجود الذّاتي في خاصّة وجوبه فلم يجحدوه "كان الله ولا شيء معه".

فالوجود الحقيقي واحد عند الطَّبيعيين؛ وهو المادَّة المحسوسة فكفروا، واثنان عند العامَّة؛ الخالق والمخلوقات فأخطؤوا، وواحد عند المحقِّقين العارفين، وهو الواجب الذَّاتي وهو الحقّ، فتحقَّقوا أن لا موجود بحقٍّ إلا الله تعالى، لأنَّ الممكنات العرضَّية بالنِّسبة لله تعالى باقية على أصل العدميَّة، ومن لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولا الواجب عين المحال لانعدام المرجِّح.

هذه حقيقة في الوصول يكشف بها السِّرُّ حقيقة المعقول، فتشرق الأنوار، وتطالع مرآته معادن الأسرار، وتشهد الرُّوح مطالع الفيض، ولا تحجبها عن السِّرِّ المكنون أوهام الممكنات، ولا خواطر العرضيات، فيكشف الحجاب ويخرق النِّقاب، وإذا أنت معاينة بلا حاجب ولا بوَّاب، وها هنا ضلَّ من ضلَّ وتوهَّم أنَّ فيه اتَّحد أو فيه حلَّ، ولا هذا ولا ذاك؛ العبد عبد والرَّبُّ ربٌّ، وكيف يكون اتحاد ولا تجانس؟ أم كيف يكون حلول ولا مشاكلة؟ وكيف يحلُّ الصَّانع في صنعه، والفاعل في مفعوله؟.

قال الشَّيخ محي الدِّين ابن عربي في عقيدته الوسطى: "اعلم أنَّ الله سبحانه واحد بإجماع، وقيام الواحد يتعالى أن يحلَّ فيه شي،ء أو يحلَّ هو في شيء، أو يتَّحد في شيء".

ويقول في باب الأسرار والفتوحات: "لا يجوز للعارف أن يقول أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب، وحاشى للعارف من هذا حاشاه".

ويقول في الفتوحات: "لا حلول ولا اتِّحاد؛ فإن القول بالحلول مرض لا يزول، وما قال بالاتِّحاد إلا أهل الإلحاد، وكما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول ومن دينه محلول".

ويقول في باب الأسرار: "أنت أنت وهو هو، فإياك أن تقول كما قال العاشق: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا، فهل قَدِرَ هذا أن يردَّ العين واحدة لا والله. والجهل لا يتعقَّل حقاً".

وقال أيضاً: "إيَّاك أن تقول أنا هو، وتغالط؛ فإنَّك لو كنت هو لأحطت به كما أحاط تعالى بنفسه".

ثمَّ يقول: "لو صحَّ أن يرقى الإنسان عن إنسانيَّته، والملك عن ملكيَّته، ويتَّحد بخالقه تعالى؛ لصحَّ انقلاب الحقائق، وخروج الإله عن كونه إلهاً، وصار الحقُّ خلقاً والخلق حقاً، وما وَثِقَ أحد بعلم، وصار المحال واجباً، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً"[1].

يقول الإمام الشَّعراني:

"وبعضهم رأى أنَّ كلَّ شيء في الوجود هو الله، وأنَّ عين هذا الوجود الحادث هو عين الله، من الجماد، والنَّبات، والعقارب، والحيَّات، والجانّ، والإنسان، والملك، والشَّيطان، ويجعلون الخالق هو عين المخلوق؛ من خسيس ونفيس، ومرجوم وملعون حتى إبليس، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون، ولا من كان في حُبِّه مجنون، والذي أقوله: إنَّ إبليس لو ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرَّأ منه واستحى من الله تعالى، وإن كان هو الذي يلقي إلى نفوسهم ذلك.

وقد حكيت لسيِّدي علي الخوَّاص بعض صفات هؤلاء الذين يقولون هذا القول فقال: هؤلاء زنادقة، وهم أنجس الطَّوائف؛ لأنهم لا يرون حساباً، ولا عقاباً، ولا جنَّة، ولا ناراً، ولا حلالاً، ولا حراماً، ولا آخرة، ولا لهم دِين يرجعون إليه، ولا معتقد يجتمعون عليه، وهم أخسُّ من أن يذكروا لأنَّهم خالفوا المعقولات والمنقولات والمعاني وسائر الأديان التي جاءت بها الرسل عن الله تعالى، ولا يعلم أحد من طوائف الكفّار اعتقد اعتقاد هؤلاء"[2].

قال الشَّيخ ابن تيميَّة في كتاب العبوديَّة: "وأمَّا النَّوع الثَّاني: فهو الفناء عن شهود السِّوى، وهو يحصل لكثير من السَّالكين، فإنَّهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله تعالى وعبادته ومحبَّته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبُد، وترى غير ما تقصد، لا يخطر بقلوبهم غير الله تعالى، بل لا يشعرون إلا به، كما قيل في قوله تعالى: {وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها}، (القصص: ١٠)، قالوا فارغاً من كلِّ شيء إلا من ذِكر موسى.

وهذا كثير ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور؛ إمَّا حبٌّ، وإمَّا خوف، وإمَّا رجاء، ويبقى قلبه منصرفاً عن كلِّ شيء إلا عمَّا قد أحبَّه أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره.

فإذا قوي صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكُوره عن ذِكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى مَنَ لم يكن –

١- التَّصوُّف والإمام الشَّعراني: ص٨٤-٨٥.

٢- المرجع السابق: ص٨٥.

وهي المخلوقات: العبد فمن سواه –، ويبقى من لم يَزَلْ – وهو الرّبُّ تعالى –، والمراد فناؤها في شهود العبد وذِكْرِه، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها.

وإذا قوي هذا ضعف الحبُّ حتى يضطرب في تميُّزه، فقد يظنُّ أنه هو محبوبُه، كما يُذْكَرُ أنَّ رجلاً ألقى نفسَه في اليمِّ، فألقى محبُّه نفسه خلفه، فقال: أنا وقعتُ فما أوقعك خلفي؟ قال: غِبْتُ بك عنِّي، فظننتُ أنَّك أنِّي"[1].

ويقول الشَّيخ ابن تيميَّة في مجموعة رسائله:

"وأمَّا قول الشَّاعر في شعره: أنا من أهوى ...ومن أهوى أنا، فهذا إنَّما أراد به الشَّاعر الاتحاد المعنوي[2]، كاتِّحاد أحد المحبيَّن بالآخر، الذي يحبُّ أحدهما ما يحبُّ الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويقول مثل ما يقول، ويفعل مثل ما يفعل، وهذا تشابه وتماثل لا اتّحاد العين بالعين، إذ كان قد استغرق في محبوبه حتى فني به عن رؤية نفسه"[3].

يقول الشَّيخ الغزالي: "ثمَّ يترقَّى الحال من مشاهدة الصُّور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النُّطق، ولا يحاول معبِّر أن يعبِّر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه، وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيَّل منه طائفةُ الحلولَ، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكلُّ ذلك خطأ، وقد بيّنّا وجه الخطأ فيه في كتاب المقصد الأسنى، بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد عن أن يقول:

وكان ما كان مما لستُ أذكره ... فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئاً بالذَّوق، فليس يدرك من حقيقة النّبوّة إلا الاسم"[4].

يقول الشَّيخ الغزالي[5] موضِّحاً المراتب الثَّلاثة:

"واعلم أن الاتِّصال والمواصلة أشار إليه الشّيوخ، وكلُّ من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذَّوق والوجد فهو من رتبة الوصول، ثمَّ يتفاوتون؛ فمنهم من يجد الله تعالى بطريق الأفعال، وهو رتبة في التَّجلّي، فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع الله تعالى، ويخرج في هذه الحالة عن التَّدبير والاختيار، وهذه رتبة في الوصول.

ومنهم من يقف في مقام الهيبة والأنس بما يكاشَفُ قلبه به من مطالعة الجلال والجمال، وهذا تجلٍّ بطريق الصِّفات، وهو رتبة في الوصول.

١- العبوديّة: ص١١٦-١١٧.

٢- قال في مجموع الفتاوى: "الاتِّحاد الوضعيّ".

٣- التَّصوُّف والإمام الشَّعراني: ص٩٤-٩٥، ومجموع الفتاوى: ٣٧٧/٢.

٤- المنقذ من الضَّلال: ١٧٨/١.

٥- هكذا ورد في الأصل، ولكنَّ هذا القول منسوب للإمام السَّهروردي في كتاب: عوارف المعارف: ٣٠٩/٢.

ومنهم من ترقَّى إلى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيَّباً في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلّي الذَّات لخواصِّ المقرَّبين، وهذه رتبة في الوصول.

وفوق هذا حقُّ اليقين، ويكون ذلك في الدُّنيا للخواصِّ لُمح، وهو سريان نور المشاهدة في كلِّيَّة العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول.

وإذا تحقَّقت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشَّريفة أنه بَعْدُ في أوَّل المنزل، فأين الوصول؟ هيهات؛ منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف في العمر القصير الدّنيوي".

فهذه فلسفة الذَّوق؛ خرجت من مشاعر الذَّات على شفتي القلم، فكانت كلاماً أجد من العسير فهمُهُ على من جهل التَّوحيد، ولكنَّك إذا حقَّقتها في عالم السِّرِّ لم تجنح إلى كلمة من قول، ولا أقصد بالذي قرَّرت إنكار أنَّا موجودون، فنحن كما ترى أيُّها القارئ لنا في عالم الوجود حظّ، ومن أحكام الشَّريعة تكليف، ولكنَّ الذي أعنيه أنَّ وجودنا استعارة، وحقيقتنا قامت على عبارة: (كن فيكون)، وإنَّنا بحاجة مستمرَّة إلى الإيجاد والإمداد، حتى يغطي عَدَمَنَا بإيجاده، وفَقْرَنَا الذَّاتي بإمداده.

يقول الإمام الشَّعراني: "أجمع أهل الحقِّ على أنَّ حقائق الأشياء ثابتة، فكيف يصحُّ نفيها؟ إنَّما العبد يحجب عنها بما دَهَمَهُ من الأمور العظيمة"[1].

وقال القشيريّ: "ومن استولى عليه سلطان الحقيقة لم يشهد من الأغيار لا غيراً، ولا رسماً، ولا طَلَلاً، يقال: إنه فني عن الخلق، وبقي بالحقّ". ثمَّ يقول: "وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال إحساسه بنفسه وبهم، وإذا قيل فني عن نفسه وعن الخلق؛ فنفسه موجودة والخلق موجودون، ولكن لا علم له بهم ولا به"[2].

د – الوحدة في الأسماء:

وإذا غابت الذَّوات في سطوع شمس الذَّات، وفَنِيَتِ الصِّفات الحادثة، شهد العبد تجلِّيات الأسماء في عالم (كن) من آثار تعلُّقات القدرة، يُنهضهم إليه دوام المجاهدات، واستدامة السّعي للقُرْبِ في مدارج الكمالات، ولهم في هذه المنازلات منازل، وفي التَّحقُّق في هذه الأسماء مراتب، حتى يصل العبد إلى التَّحقيق، وتخليقٍ بالخُلُقِ الحقيق، فللصّوفي في كلِّ اسم من الأسماء حظٌّ مقسوم على قدر استعداد مصباحه، وسطوع زجاجته، وصفاء زيته، واستمع إلى حجَّة الإسلام يجلو لك مراتب الأسماء، فتعرف الأسماء (ليس من يلهو ومن يهوى سواء).

يقول: "إنَّ كمال العبد وسعادته في التخلُّق بأخلاق الله تعالى، والتَّحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يُتَصَوَّرُ في حقِّه، اعلم أنَّ من لم يكن له حظٌّ من

١- التَّصوُّف والإمام الشَّعراني: ص٨٨.

٢- المرجع السَّابق: ص٨٩-٩٠.

معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه ويفهم في اللغة تفسيره ووضعه، ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى؛ فهو مبخوس الحظّ نازل الدَّرجة، فإنَّ سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسَّة السَّمع التي بها يدرك الأصوات، وهذه رتبة تشارك البهيمة فيها.

وأمَّا فهم وضعه في اللُّغة فلا يستدعي إلا معرفة العربيَّة، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللُّغوي، بل الغبيُّ البدوي.

وأمَّا اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتَّصديق بها، وهذه رتبة يُشارك فيها العاميّ بل الصَّبي، فإنَّه بعد فهم الكلام إذا ألقي إليه هذه المعاني تلقَّاها وتلقَّنها واعتقدها بقلبه وصمَّم عليها، وهذه درجات أكثر العلماء فضلاً عن غيرهم، ولا ينكر فضل هؤلاء بالإضافة إلى من يشاركهم في هذه الدَّرجات الثَّلاث، ولكنه نقص ظاهر إلى ذروة الكمال، فإن حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين، وحظوظ المقرَّبين من معاني أسماء الله الحسنى ثلاثة:

الأوَّل: معرفة هذه المعاني على سبيل المشاهدة والمكاشفة حتى يتَّضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ، وينكشف لهم اتصاف الله تعالى بها انكشافاً تجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنة لا بإحساس ظاهر، وكم بين هذا وبين الاعتقاد المأخوذ من الآباء والمعلّمين تقليداً والتَّصميم عليه وإن كان مقروناً بأدلة جدليَّة كلاميَّة.

الثَّاني: من حظوظهم استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام، يشوِّقهم إلى الاتِّصاف بما يمكنهم من تلك الصِّفات ليتقرَّبوا بها من الحقِّ قرباً بالصِّفة لا بالمكان، فيأخذوا من الاتِّصاف بها شيئاً من الملائكة المقرَّبين عند الله تعالى، ولن يتصوَّر أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصِّفة، وعشق لذلك الجلال والكمال، وحرص على التَّحلِّي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكناً للمستعظَم بكماله، فإن لم يكن بكماله فينبعث الشَّوق إلى القدر الممكن منه لا محاله، ولا يخلو عن هذا الشَّوق أحد إلا لأحد أمرين:

إمَّا لضعف المعرفة واليقين بكون الوصف المعلوم من أوصاف الجلال والكمال، وإمَّا لكون القلب ممتلئاً بشوق آخر مستغرقاً به.

فالتِّلميذ إذا شاهد كمال أستاذه في العلم انبعث شوقه إلى التَّشبُّه والاقتداء به، إلا إذا كان مملوءاً بالجوع، لذلك ينبغي أن يكون النَّاظر في صفات الله تعالى خالياً بقلبه من إرادة ما سوى الله تعالى، فإنَّ المعرفة بذر الشَّوق، ولكن مهما صادف قلباً خالياً عن مسكن الشهوات، فإن لم يكن خالياً لم يكن البذر منتجاً.

الثَّالث: السَّعي في اكتساب الممكن من تلك الصِّفات والتخلُّق بها والتَّحلي بمحاسنها، وبه يصير العبد ربَّانياً أي قريباً من الرَّبِّ تعالى، وبه يصير رفيقاً للملأ

الأعلى من الملائكة، فإنَّهم على بساط القرب، فمن ضرب إلى شبه صفاتهم نال شيئاً من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم المقرِّبة لهم إلى الحقِّ تعالى"[١].

الطَّريق:

إذا سألتني؛ هل إلى هذه المعرفة سبيل؟ أم إلى تلك التَّزكية طريق؟.

أقول: غاية لا طريق إليها وّهْمٌ وسراب، وحقيقة لا سبيل إليها خيال وخراب.

ما أكثر ما تحدَّث القوم عن الطَّريق ووجَّهوا وجوه النَّاس إلى بداية الدَّرب حتى يسلكوه، ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى البصائر والأسرار.

ويكفي أن السَّفلة في تعريفهم أنهم من أضلُّوا صراط الله تعالى، سئل ذو النُّون المصريِّ عن السَّفلة فقال: "من لا يعرف الطَّريق إلى الله ولا يتعرَّفه"[٢].

ركن هذا الطَّريق:

أوَّلاً: المجاهدة:

ولكن أتدري لماذا لم ينهج النَّاس نهجهم؟ ولم يسلكوا سبيلهم؟ أظنُّك عرفت لأن ركن طريقهم يقوم على المجاهدة على جبهتين واسعتين؛ جبهة النَّفس، وجبهة الشَّيطان.

فسبيلهم وعر المسالك، ما أكثر خطاطيف الشَّهوات عليه، وكلاليب العلائق فيه، لا يطؤه بقدمه إلا بطل، ولا يباشره إلا ملك، ولن ينتصر فيه إلا رجل لا يزال سيفه يقطر من دم المجاهدات، لذلك أعرض عن طريقهم الجبناء، وخاف سبيلهم النَّاس: "حفَّت الجنَّة بالمكاره، وحُفَّت النَّار بالشَّهوات"[٣].

يقول شيخهم الأكبر: "احذر هذا الطَّريق؛ فإنَّما هو طريق الهُلْكِ أو المُلْك، من حقَّق علمه وعمله وحاله فقد نال عزَّ الأبد، ومن فارق التَّحقيق فيه فقد هلك مع من هلك"[٤].

خَاطِبِ الخَطْبَ دع الدَّعوى فما ... بالرُّقى تَرقى إلى وَصْلِ رُقَيْ

رح معافى واغتنم نصحي وإن ... شئت أن تهوى فللبلوى تَهَيْ

فمن لم تكن له في بدايته عزيمة القطع لن يذوق من طعم الوصول حبَّة، ولا من ريحانة الحقيقة نفحة، يقول الدَّقَّاق: "واعلم أن من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة؛ لم يجد من هذه الطَّريقة شـَمَّة"[٥]. ويقول المغربي: "من ظنَّ

١- المنقذ من الضَّلال: ٤٥/١.

٢- الرِّسالة: ٣٩/١.

٣- رواه مسلم، رقم (٢٨٢٢).

٤- قواعد زروُّق: ص٣١١-٣١٢.

٥- الرِّسالة: ٢١٦/١.

أنه يُفتح له شيء في هذه الطَّريقة، أو يكشف له عن شيء منها إلا بلزوم المجاهدة فهو في غلط"[1].

يقول حجَّة الإسلام: "ثمَّ إنِّي لمَّا فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمَّتي على طريق الصُّوفيَّة، وعلمت أن طريقهم إنما تتمُّ بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النَّفس، والتَّنزُّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوَّصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله تعالى.

وكان العلم أيسر عليَّ من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبيّ، والمتفرِّقات المأثورة عن الجنيد، والشّبلي، وأبي يزيد البسطاميّ، وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كُنْهِ مقاصدهم العلميَّة، وحصَّلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلُّم والسَّماع، فظهر لي أن أخصَّ خواصِّهم؛ ما لا يمكن الوصول إليه بالتَّعلُّم، بل بالذَّوق والحال وتبدل الصِّفات.

فكم من الفرق بين أن يعلم حدَّ الصِّحَّة وحدَّ الشِّبع وأسبابهما وشروطهما، وبين أن يكون صحيحاً وشبعانا؟ وبين أن يعرف حدَّ السّكر؛ وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معالم الفكر، وبين أن يكون سكراناً! بل السَّكران لا يعرف حدَّ السُّكر، وعلمه وهو سكرانٌ وما معه من علمه شيء، والصَّاحي يعرف حدَّ السُّكر وأركانه وما معه شيء من السُّكر، والطبيب في حالة المرض يعرف حدَّ الصِّحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصِّحة، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزُّهد وشروطه وأسبابه، وبين أن يكون حالك الزُّهدَ وعزوفَ النَّفس عن الدُّنيا.

فعلمت يقيناً أنَّهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، وأنَّ ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصَّلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسَّماع والتَّعلم، بل بالذَّوق والسُّلوك"[2].

وإذا أنت جاهدت[3] هديت سبيلاً، وما أكثر السُّبل إليه فتقطف الثمَّرة؛ وإنَّ الله لمع المحسنين، قال الدَّقَّاق: "ومن زيَّن ظاهره بالمجاهدة، حسَّن الله تعالى سرائره بالمشاهدة، قَالَ اللَّه تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، (العنكبوت: ٦٩)"[4].

١- فريضة هذه المجاهدة:

وهذه المجاهدة فرض عين على كلِّ من دخل بالإسلام: تجب على البالغ، والعجوز، والمرأة، والصَّبيّ، والغنيّ، والفقير، لا ينوب فيها أحد عن أحد، ولا تصح

١- الرِّسالة: ٢١٦/١.

٢- المنقذ من الضَّلال: ١٧٠/١.

٣- أي ألزَمْتَ نفسك بالحقائق.

٤- الرِّسالة: ٢١٦/١.

فيها الوكالات، ولا تدفع بطريق الحوالات {كلُّ نفس بما كسبت رهينة}، (المدَّثِّر: ٣٨)، {ولاتزر وازرة وزر أخرى}، (الإسراء: ١٥).

فالصُّوفيُّ إذا فتح جبهات القتال على ساحات العدو لم يكن مختاراً؛ بل ملزماً لزوم تكليف، ولكنَّ غيره ترك هذا الفرض، ونسي هذه الأوامر، فأضاع فروضاً هي شعب الإيمان وأخلاق الرَّحمن، ذلكم أمر غريب، أو شأن عجيب.

فكيف يَغْفُلُ النَّاس بأسرهم عن فرض من ورائه فروض، ويفطن له الصُّوفيّ، بل يراه أمَّ الفرائض، وأبا الخير، ومنبع كلِّ سعادة في الدَّارين، فيا للعجب ويا للغرابة، يتكلمون في إصلاح النَّاس وما أصلحوا النُّفوس، ويتدارسون تهذيبهم وما أتقنوا الدُّروس، كلُّ ذلك لسبب واحد لم يقع نظري على سواه؛ {نسوا الله فأنساهم أنفسهم}، (الحشر: ١٩).

ونهايتها المشاهدة، فلا مجاهدة بعدها، فلا تجتمع مجاهدة ومشاهده، إذ نهاية التَّعب تمام السَّفر، فإذا حصل الوصول فما بقي إلا الرَّاحة ومشاهدة الحبيب، مع حفظ الأدب، وهي ثلاث:

أ- مجاهدة الظَّاهر بدوام الطَّاعات والكفِّ عن المنهيات.

ب- ومجاهدة البواطن بنفي الخواطر الرَّديئة، ودوام الحضور في الحضرة القدسيَّة.

ج- ومجاهدة السَّرائر باستدامة الشُّهود وعدم الالتفات إلى غير المعبود"[1].

٢- صفات النَّفس:

والصُّوفي مجاهد يقاتل في ميادين النُّفوس، وجنديٌّ لا يعرف خصائص العدوِّ مغلوب، أو يجهلُ معالم المعركة مطلوب، فإذاً؛ علم القوم من خصومهم أنواع الهجمات ومراحل الغايات، ودسائس الشَّهوات، وخواطر النَّكسات، فالنَّفس تارة تكون شرَّاً محضاً تأمر بالسُّوء، لا يحاورها واعظ، ولا يخالطها شيء من خير **(وهي أمَّارة)**، وإذا استيقظ فيها واعظ الخير تلوم صاحبها على الذَّنب وتأنيبه على التَّقصير **(وهي اللَّوَّامة)**، وإذا اطمأنَّت إلى فعل الخير وسكنت إليه ودأبت عليه **(فتلك المطمئنَّة)**، ولكلِّ نفس مدخلاً إلى الغاية تردي صاحبها في الطَّريق وتقطعه عن الله تعالى، لذلك كانت نفوسهم دائماً تحت الفحص، وفي ميزان الحذر، وإن تمحَّض في أمرها الخير.

وخالف النَّفس والشَّيطان واعصهما ... وإن هما محَّضاك النُّصح فاتَّهِم

وإنَّما يفتح لها أبواب الهجمات الشَّيطانيَّة ويسدِّدها إلى ربح المعركة إبليس، ومن آفات اللَّوَّامة اليأس، ومن آفات المطمئنَّة الاعتماد على العمل .. إلخ.

٣- وساوسها:

وأصغى الصُّوفيَّة إلى بواطنهم إصغاء الطَّبيب الفاحص، يسمع ضربات نبض القلب، وتلوّن الأصوات، فعرفوا في ذواتهم إذاعات الخير من محطَّات الشَّرِّ، وإذا بهم أدركوا الهواجس من الوساوس من الإلهام.

١- معراج التَّشوُّف: ص٣٨.

قال ابن عجيبة: "الخواطر خطابات ترد على القلوب؛ تكون بإلقاء مَلَكٍ، أو شيطانٍ، أو حديثِ نفس:

١- فإن كان من المَلَكِ فإلهام.

٢- أو من الشَّيطان فوسواس.

٣- أو من النَّفس فهواجس.

فما وافق الحقَّ ودعا إلى اتِّباعه فمن المَلَك، وما وافق الباطل ودعى إلى معصيته غالباً من الشَّيطان، وقد يدعو إلى الطَّاعة حيث يترتَّب عليها معصية؛ كالرِّياء وحبِّ المدح، وما دعا إلى اتِّباع الشَّهوة والدَّعة إلى الرَّاحة فمن النَّفس.

قال أبو علي الدَّقاق: "من أكل الحرام لم يفرِّق بين الإلهام والوسواس، وكذلك من قوته معلول".

وفرَّق الجنيد بين هواجس النَّفس ووساوس الشَّيطان؛ بأنَّ ما دعت إليه النَّفس لا تنتقل عنه بل تعاوده مرَّة بعد مرَّة، إلا بعد مجاهدة كثيرة، ووساوس الشَّيطان ينتقل عنها، فإذا خالفته في معصية انتقل لأخرى، وربَّما ذهب بالتعوُّذ ونحوه، ولذلك كانت النَّفس أخبث من سبعين شيطاناً.

أمَّا الواردات: فهي ما يرد على القلوب من التجلِّيات القويَّة، والخواطر المحمودة بما لا يكون للعبد فيه تكسُّب"[1].

٤- وسائل المجاهدة: الذِّكر، والعبادة:

لقد تسلَّح الصُّوفيُّ في جهاده بسيف الذِّكر، وادَّرع بدرع العبادة، فانتصر القوم في معاركهم على هذا الأساس، وكانت لهم مع الله تعالى خلوات ليحظوا بالحلوات، وداوموا على الأوراد فأتتهم الواردات، ولم يضعوا أوزار الحرب بل استمروا في المجاهدات، حتى أشرقت الأنوار وحصل القرار، ونووا الإقامة بعد السَّفر الطَّويل والتَّعب المرير.

٥- شروط هذا الطَّريق:

فالصُّوفيُّ مهاجر ينتقل من دار إلى دار، ومن منزل إلى منزل، ورحَّالة لا ينزل له رَحْلٌ، ولا يقرُّ له قرار، لا يكلُّ في طلب الحقيقة، ولا يترجَّل في سبيل المطلوب، ولكنَّ جاهلاً في طريق الحقيقة لن يهتدي السَّبيل، وسَيَضِلُّ في بيدائها إذا لم يجد الدَّليل لكي يأخذ بيده في الطَّريق المستقيم، وهو أقرب خط بين نقطتين، فبيداء الحقيقة مظلمة حتى تنفذ إلى النُّور.

فتحتاج في ظلمتها إلى هاد خَبَرَ المسالك، وطرق الطَّرائق، عنده علم بحركات النُّجوم، وخبرة بعلائم الرُّسوم، ومعرفة بمنازل الأقمار ومطالع الشُّموس، ذلك شرط في الوصول، لا يختلف فيه ذو عقل رشيد ورأي سديد.

وأما من وصل بلا دليل؛ فقد أخذ بيده القدر، وأحاطته العناية، ولقي أشد العنت وأصعب المصاعب، ولكنَّ الكثيرين تاهوا فكانوا أثراً بعد عين، وفي ذلك عبرة لمن يعتبر.

١- معراج التَّشوُّف: ص٥٠-٥١.

ثانياً: الذِّكر:

وهو منشور الولاية وعلم الوصول، وفلسفة تقوم على كلمتين اثنتين أطال القوم فيهما التَّفصيل وشرحوا فوائده، وأبانوا مقاصده ووضَّحوا معارجه، ذلك هو أنَّ بالذِّكر يخنس الشَّيطان، وهو الواضع على القلب خَطْمَهُ فيحجُبَهُ عن مطالعة الغيب، وتنخسىءُ النَّفس، وهي التي تُكَدِّر صفو الرُّوح، فينفتح القلب على عالم الأنوار، ويرتقي العبد في الكمالات.

١- ما هو الذِّكر؟:

قال الإمام حجَّة الإسلام الغزالي: "الذِّكر حقيقة: هو استيلاء المذكور على القلب، وانمحاء الذِّكر وخفاؤه". قال: "لكن له ثلاثة قشور؛ بعضها أقرب إلى اللُّبِّ من البعض، واللُّبُّ وراء القشور الثَّلاثة، وإنَّما فضل القشور لكونها طريقاً إليه، فالقشر الأعلى ذكر اللِّسان فقط، ولا يزال الذَّاكر يوالي الذِّكر بلسانه، ويتكلَّف إحضار القلب معه، إذ القلب يحتاج إلى موافقته حتى يحضر مع الذِّكر، ولو ترك وطبعه لاسترسل في أودية الأفكار، إلى أن يشارك القلب اللِّسان، ويحرق نور القلب الشَّهوات والشَّياطين، ويستولي ذكره، فيضعف ذكر اللِّسان عند ذلك، وتمتلئ الجوارح والجوانح بالأنوار، ويطهر القلب من الأغيار، وينقطع الوسواس، ولا يسكن بساحته الخنَّاس، ويصير محلّاً للواردات، ومرآة صقيلة للتجلّيات والمعارف الإلهيات، وإذا سرى الذِّكر إلى القلب وانتشر في الجوانح؛ فَذَكَرَ الله تعالى كلُّ عضو بحسب حاله"[1].

٢- فوائد الذِّكر وثمرته عند القوم:

قال ابن عطاء الله السَّكندري: "من رام فوائده فليتَّبع النُّصوص الواردة بفوائده، وليست بالقليل وليس إلى حصرها من سبيل، وذكر الأئمة لها فوائد جمَّة، فلنذكر الحاضر على الخاطر فنقول:

الذِّكر يطرد الشَّيطان ويمنعه ويكسره، ويرضي الرَّحمان ويسخط الشَّيطان، ويزيل الهمَّ عن القلب والفمّ، ويجلب الفرح والسُّرور، ويذهب التَّرح والشُّرور، ويقوِّي القلب والبدن، ويصلح السِّرَّ والعلن، ويبهج القلب والوجه وينوِّره، ويجلب الرِّزق وييسِّره، ويكسو الذَّاكر مهابة، ويلهم به في كلِّ أمر صوابه.

ودوامه للمحبَّة سبب من الأسباب، وهو لها من أعظم الأبواب، ويورث المراقبة الموصلة لمقام الإحسان الذي فيه يُعبد الله تعالى كأنه بالعيان، ويورث الإنابة، فمن أكثر الرُّجوع بذكره أورثه الرُّجوع إليه في سائر أمره، ويورث القرب من الرَّبِّ، ويفتح باب المعرفة في القلب، ويورث العبد إجلالاً وهيبة لربِّه، والغافل حجاب الهيبة رقيق على قلبه.

ويورث ذكرَ الله تعالى للعبد، وهو أعزُّ وأشرف وأعلى مجد، وبه يحيا قلب البشر كما يحيا الزَّرع بوابل المطر، وهو قوت الأرواح كما أن الغذاء قوت الأشباح،

١- نور التَّحقيق: ١٥٢-١٥٣.

وجلاء القلب من صداه الذي هو الغفلة واتِّباع هواه، وهو للفكر كالسِّراج الهادي في الظُّلمة إلى المنهاج، ويحبط الذُّنوب والخطيئات، إنَّ الحسنات يذهبن السَّيِّئات.

ويزيل الاستيحاش الحاصل بين الرَّبِّ وبين العبد الغافل، وما يذكره العبد من نحو تسبيح وتكبير وتهليل وتمجيد؛ يُذكِّر من يصاحبهنَّ حول العرش المجيد، والعبادات كلُّها في يوم الحشر تزول عن العبد؛ إلا ذكرَ الله تعالى، والتَّوحيد، والحمد، ومن تعرَّف إلى الله تعالى في الرَّخاء بذكره؛ تقرَّب إليه في الشدَّة ببرِّه.

وفي الأثر؛ أنَّ العبد المطيع الذَّاكر لله تعالى إذا أصابته شدَّة أو سأل الله تعالى حاجة قالت الملائكة: "ياربِّ صوت معروف من عبد معروف"، والغافل المعرض عن الله تعالى إذا دعاه أو سأله قالت الملائكة: "صوت منكر من عبد منكر"[1].

ولا عمل من الأعمال أنجى منه من عذاب الله ذي الجلال، وهو للعبد سبب لنزول السَّكينة عليه، وحفوف الملائكة به، ونزولها لديه وغشيان الرَّحمة، وما أجلَّ ذلك من نعمة، وهو للّسان شاغل عن الغيبة والكذب وكلِّ باطل، والذَّاكر لا يشقى به جليسه، ويسعد به أنيسه، ومجلسه لا يكون عليه حسرة يوم القيامة، ولا يكون عليه تِرة ولا ندامة.

والذِّكر مع البكاء والعويل سبب لنيل ظلِّ العرش الظَّليل يوم الجزاء الأكبر والوقوف الطَّويل، ومن كان ذِكر الله تعالى له عن المسألة شاغلاً، أعطي أفضل ما أعطي السَّائل، ويتيسَّر على العبد في عموم الأوقات وأكثر الحالات، وحركة الذِّكر على اللّسان أيسر حركة على الإنسان، وهو غراس الجنان، والجنَّة طيِّبة التُّربة عذبة الماء، وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، كما جاء في الأحاديث الحسان[2].

وهو سبب للنَّجاة من النِّيران، والأمان من النِّسيان في الدُّنيا ودار الهوان، وشاهده: {فاذكروني أذكركم}، (البقرة: ١٥٢)، كما جاء في القرآن، نسيان العباد لله تعالى ينسيهم أنفسهم، وذلك غاية الفساد، وهو نور للعبد في دنياه وقبره ونشره وحشره، وهو رأس الأصول وباب الوصول، ومنشور الولاية الذي به على النَّفس والهوى يصول، وإذا رسخ في القلب ووقع، صار اللّسان له كالتَّبع؛ استغنى الذَّاكر وارتقى وارتفع.

١- جاء في مصنَّف ابن أبي شيبة رقم (٢٩٤٨٠)، ورقم (٣٤٦٦٤): "إذا كان العبد يحمد الله في السَّرَّاء، ويحمده في الرَّخاء، فأصابه ضرٌّ، فدعا الله تعالى، قالت الملائكة: صوت معروف من امرئ ضعيف، فيشفعون له، فإذا كان العبد لا يذكر الله تعالى في السَّرَّاء، ولا يحمده في الرَّخاء، فأصابه ضرٌّ فدعا الله تعالى، قالت الملائكة: صوت منكر، فلم يشفعوا له".

٢- عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد، أقرئ أمَّتك منِّي السَّلام، وأخبرهم أنَّ الجنَّة طيِّبة التُّربة عذبة الماء، وأنَّها قيعان، وأنَّ غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر". (رواه التِّرمذي، رقم (٣٤٦٢)).

والغافل وإن كان ذا مال فهو فقير، أو ذا سلطان فهو حقير، ويجمع على الذَّاكر قلبه المتفرِّق، وشمل إرادته وعزمه المتمزِّق، ويفرِّق حزنه وذنبه، وجند الشَّيطان وحزبه، ويقرِّب من قلبه الآخرة، ويبعد عن قلبه الدُّنيا وإن كانت حاضرة، وينبه القلب بترك اللَّهو والباطل، ويستدرك ما فات، ويستعد لما هو آت، وهو شجرة ثمَرَتُها المعارف، ورأس مال كل عارف.

والله مع الذَّاكرين بالقرب والولاية، والمحبَّة والتَّوفيق والحماية، ويعدل عتق الرِّقاب، والجهاد ومشقَّاته الصِّعاب، والقتل في سبيل الله والعطب، وإنفاق الوَرِقِ والذَّهب، وهو من الشُّكر أصله وأساسه، ومن لم يزل لسانه رطباً بذكره واتقى الله تعالى في نهيه وأمره؛ أوجب له دخول جنَّة الأحباب، والاقتراب من ربِّ الأرباب: {إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم}، (الحُجرات: ١٣)، ويدخل الجنَّة وهو يضحك ويبتسم، ويتقلَّب فيها ويتنعَّم، ويُذهب من القلب القساوة، ويورثه اللِّين والطَّراوة.

وللذِّكر لذَّات أحلى من لذَّات المطعومات والمشروبات، ووجه الذَّاكر وقلبه يكسى في الدُّنيا نضرة وسروراً، وفي الآخرة وجهه أشدُّ بياضاً من القمر ونوراً، وتشهد له البقاع كما تشهد لكلِّ غافل عصى وأطاع، وهو يرفع العامل أعلى الدَّرجات، ويوصله إلى أعلى المقامات.

والذَّاكر حيٌّ وإن مات، والغافل وإن كان حيَّاً فهو من جملة الأموات، ويورث الرِّي من العطش عند الموت، والأمن من المخاوف عند خوف الفوت، والذَّاكر في الغافلين كليل مظلم فيه مصباح، والغافلون كليل مظلم ليس له مصباح، والذَّاكر إن شغله عن الذِّكر شاغل فقد تعرَّض للعقوبة وإن كان عن ذلك غافل، فمن جلس مع المَلِكِ بغير أدب أسلمه ذلك إلى العطب، والحضور في الذِّكر حمية عن تخليط المعاصي بالطَّاعة، والحمية وإن كانت قليلة فلها منفعة جليلة"[١].

٣- الذِّكر لا يُترك:

قال ابن عطاء الله السَّكندري: "لا تترك الذِّكر لعدم حضور قلبك مع الله تعالى فيه، فغفلتك عن وجود ذكره أشدّ من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عمَّا سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز"[٢].

٤- الذِّكر طريق الوصول:

وهكذا يظهر أن للذِّكر أهميَّة عظمى في السَّير إلى الله عزَّ وجلَّ، وعليه يعوَّل في الفتح والمعرفة والوصول، وأنَّه من أقوى وسائل المجاهدة التي يحاولها المرء حتى يصل إلى هذه المعالي العليا من الذَّوق، إذ أنهم يأمرون المريدين بذكر الاسم المفرد (الله) على الوجه المطلوب في الطَّريق، من الخلوة والرِّياضة، وتقليل نوم

١- نور التَّحقيق: ص٢٠٠-٢٠٥.

٢- المرجع السَّابق: ص١٥٣.

وأكل، وطهارة تامَّة واستحضار قلب، وفراغه من الحظوظ السَّافلة والمطامع النفسانيَّة، وغير هذا ممَّا يأمرون المريدين.

فينقطع لله سبحانه وتعالى، ويقضي أياماً – وهي قليلة وليست كثيرة كما يظنُّه البعض – متوجِّهاً إلى الله عزَّ وجلَّ، ذاكراً بذلك الاسم الأعظم، متفحِّصاً ناظراً إلى الاسم لدى ذِكْرِه، جامعاً همَّته وفكرته فيه بقوَّة وعزم حتى يمتزج بدمه ولحمه، ويطمئنَّ قلبه بذكره.

فإذا سار على هذا المنوال وتمكَّن منه الحال؛ أمره الأستاذ بعد ذلك بالانتقال إلى ما هو أعلى من هذا المقام، لكونه قد طفح قلبه وتمرَّن فكره على التَّفكير واستحضار عظمة المذكور، وأصبح أهلاً لما يلقى في رُوعه، فارغ الفؤاد من كلِّ الأغيار، حتى إذا تدفَّق بحر العظمة بأمواج المعاني يجده خالياً من سوء الأكدار.

فتتمكَّن منه الحقائق والأسرار، وتضمحلُّ من نظره الأكوان، وتنمحي لديه الرُّسوم، ويزول الوهم والسَّراب، وينكشف عنه الغيريَّة وظلام الصُّورة الوهميَّة الخياليَّة، ويرتفع الحجاب، فعند ذلك يحصل على الفتح المبين، والمقام العظيم، وعلى معرفة تعجز عن إعرابها ألسن البلغاء، إذ لسوى الجَنَانِ ما لها إفشاء، فتحصل المنَّة وتتمُّ النِّعمة.

وبعد ما يحصل على الحريَّة باستغراقه في بحر شهود وحدة الحقِّ سبحانه، يزاد بالشَّريعة تمكُّناً، ولمقاصد العبادات ومعانيها فهماً وتحقُّقاً، فيعطي العبوديَّة حقَّها، والحريَّة مستحقَّها، {يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثَّابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة}، (إبراهيم: ٢٧).

وعلى هذه الكيفيَّة المذكورة؛ وهذه النَّتائج الحقيقيَّة الذَّوقية وجدنا سيِّدي ومولاي محمد الهاشميّ عليه رحمة الله تعالى يُدرج المريدين في خلواتهم على هذا المنوال، ولله الحمد والمنَّة والفضل أوَّلاً وآخراً.

وإلى هذا أشار الإمام حجَّة الإسلام الغزالي – بعد تقسيم العلوم إلى وهبيَّة وكسبيَّة –، قال: "فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التَّصوُّف إلى العلوم الإلهاميَّة دون التَّعليميَّة، فلذلك لم يحرصوا على دراسة ما صنَّفه المصنِّفون، والبحث عن الأقاويل والأدلَّة المذكورة، بل قالوا: الطَّريق تقديم المجاهدة ومحو الصِّفات المذمومة، وقطع العلائق كلِّها، والإقبال بِكُنْهِ الهمَّة على الله تعالى.

ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولِّي لقلب عبده، والمتكفِّل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولَّى الله أمر القلب فاضت عليه الرَّحمة. وأشرق النُّور في القلب، وانشرح الصَّدر وانكشف له سرُّ الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرَّة بلطف الرَّحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتَّصفية المجرَّدة، وإحضار الهمَّة مع الإرادة الصَّادقة، والتَّعطُّش التَّامِّ، والترصُّد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرَّحمة.

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النُّور؛ لا بالتَّعلُّم والدِّراسة والكتابة للكتب، بل بالزُّهد في الدُّنيا والتَّبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بِكُنْهِ الهمَّة على الله تعالى، من كان لله كان الله له.

وزعموا أنَّ الطَّريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدُّنيا بالكلِّيَّة وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمَّة عن الأهل والمال والولد والوطن، وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كلِّ شيء وعدمه، ثمَّ يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرَّواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهمِّ، ولا يفرِّق فكره بقراءة قرآن، ولا بالتأمُّل في تفسير، ولا بكتب حديث ولا غيره.

بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً: (الله.الله) على الدَّوام مع حضور القلب، حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللِّسان، ويرى كأنَّ الكلمة جارية على لسانه، ثمَّ يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللِّسان، ويصادف قلبه مواظباً على الذِّكر.

ثمَّ يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللَّفظ وحروفه وهيأة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرَّداً في قلبه، حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحدِّ، واختيار من استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرِّضاً لنفحات رحمة الله تعالى، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله تعالى من الرَّحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطَّريقة.

وعند ذلك إذا صدقت إرادته، وصفت همَّته، وحسنت مواظبته، فلم تجذبه شهواته، ولم يشغله حديث النَّفس بعلائق الدُّنيا، تلمع لوامع الحقِّ في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت؛ ثمَّ يعود، وقد يتأخَّر، وإن عاد فقد يثبت، وقد يكون مختطفاً، وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التَّلاحق، وقد يقتصر على فنٍّ واحد، ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك، وتصفية وجلاء، ثمَّ استعداد وانتظار فقط"[1].

ثالثاً: الشَّيخ (المرشد):

١- الشَّيخ (المرشد) والدَّليل:

قلنا لا بدَّ من الدَّليل في الوصول إلى المعرفة والتَّحقق بالتَّزكية، وفلسفة الدَّليل تقويم في أصولها على الصُّحبة والنُّصح، وفي حقيقتها على العلم والاختصاص:

فأنت ترى للصُّحبة أثراً واضحاً في سلوك الأشخاص، فإن الطِّباع تشرب من الطِّباع حتى مع اختلاف الأجناس، فلو نظرت إلى من يعاشر الثِّيران لوجدت فرقاً بيِّناً بينه وبين راعي الأغنام، هذا مع الحيوان، فكيف مع إنسان صالح يرتقي بك

١- إحياء علوم الدِّين: ١٩/٣.

حاله، وتسدِّدك نصائحه، وتسمو بك أخلاقه، فإذا أنت صحبت صالحاً متمسِّكاً، ولازمته لا بد أن يرفعك إلى رتبته، ويعطيك من خاصِّيَّته.

وإذا صحبت ضعيف النَّفس فاسداً متمكِّناً، لا بدَّ وأن يدنيك من حالته، ويسفل بك إلى درجته، فطلب منك الرَّبُّ عزَّ وجلَّ أن تصحب الصَّادقين، وتصبر نفسك مع الدَّاعين، وتتَّبع سبيل المنيبين، حتى تعيش في أطيب الحالات، وترتفع إلى أرقى المستويات، وهذا هو طريق الكمال.

ولكن حقيقة الإرشاد تقوم على العلم والاختصاص: العلم بالله تعالى، والاختصاص بتزكية النَّفس، تلك شهادة حملها علماء التَّربية من جامعات التَّربية الرُّوحية على أيدي مرشدين وأشياخ سبقوهم، وكانوا مريدين للحقيقة، فربّوهم وأدّبوهم وتلقوا هذا عن أشياخهم إلى السَّيِّد الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، تُثبت ذلك الوثائق الموجودة والأسانيد الصَّحيحة، كأسانيد علم الحديث، والفقه، والتَّفسير، والقراءات.

فالشَّيخ (المرشد) كمرآة صادقة ترى فيها عيوبك بالقدر الذي هي ليست مقعرة فتكبِّر، أو محدَّبة فتصغِّر، ترى فيها عيوب نفسك وجهلك بربِّك، وأنت لا تزال تحاور نفسك فتعرضها على هذه المرآة، وتكمِّل نقصك فتعرفه فيها، حتى تصبح أنت المرآة، فيك تُجَلِّي عيوب الآخرين.

قال الإمام الغزالي: "اعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أراد بعبد خيراً بصَّره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذةً لم تَخْفَ عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكنَّ أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القَذَى في عين أخيه ولا يرى الجِذْعَ في عين نفسه، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الأوَّل: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النَّفس، مطّلع على خفايا الآفات، ويحكِّمه في نفسه، ويتَّبع إشاراته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتِّلميذ مع أستاذه، فيعرِّفه أستاذُهُ وشيخُهُ عيوب نفسه، ويعرِّفه طريق علاجها، وهذا قد عزَّ في الزَّمان وجوده.

الثَّاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديِّناً، فينصِّبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظَّاهرة ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدِّين.

الثَّالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسِنَةِ أعدائه، فإنَّ عين السُّخط تبدي المساويا.

الرَّابع: أن يخالط النَّاس؛ فكلُّ ما رآه مذموماً فيما بين الخلق؛ فليطالب نفسه به وَيَنْسُبَهَا إليه"[1].

وقال السَّيِّد الهاشميُّ رحمه الله تعالى: "والموفَّق ذو الهمَّة العليَّة من المريدين، من وفقَّه الله تعالى للعمل بجميع الطُّرق، فيكون في وقت اجتماعه بشيخه دأبه التَّسليم والاستماع والاتِّباع، وفي وقت مفارقته الشَّيخ يصاحب أخاً صالحاً، وفي

١- إحياء علوم الدِّين: ٦٤/٣.

وقت مفارقته للأخ الصَّالح أيضاً يتعرَّف عيوب نفسه من أعدائه ليتجنبها ويتوب منها، وفي وقت بُعْدِهِ عن الأعداء يتعرَّف عيوب نفسه من مخالطته للنَّاس واطِّلاعه على عيوبهم.

وليكثر من مطالعة كتب الكمَّل من العارفين بالله تعالى، وليحضر مجالس العلم من تفسير وحديث وتصوُّف مع من عقيدته صحيحة سالمة من الزَّيغ، وليكثر من الصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمد عليه الصَّلاة والسَّلام في سائر أوقاته.

وأمَّا من انتسب إلى شيخ نسبةً كلاميَّة فقط، ولم يلازمه ملازمة الظلِّ لصاحبه بشرط النِّيَّة الصَّالحة، والمحبَّة الصَّادقة، والظنِّ الحسن، والخلق الكريم، والوقوف عند الأمر والنَّهي من غير تبديل ولا تغيير، أو ملازمة الرَّضيع لأمه، أو ملازمةَ المريض لطبيبه ... فهو مغرور"[1].

٢- شروط الشَّيخ (المرشد):

وللشَّيخ (المرشد) شروط وجوب، وشروط كمال:

١- أما شروط الوجوب؛ فلا بدَّ له منها حتى يتأهَّل لإرشاد النَّاس، وهي واجبة فيه، وشروط في وجوده وهي أربعة: العلم بالفرائض العينيَّة التي عليه - ومعرفته بالله تعالى - وخبرته بالنَّفس وطرائق تزكيتها - والإذن من أشياخه.

أ- فيجب أن يكون الشَّيخ (المرشد) عالماً بما يجب عليه من فروض العين، وعاملاً بها، وذلك بدهيٌّ حتى يتميَّز بالإسلام، ويعرف بالإيمان، وهذه الفروض؛ إمَّا أن تتعلَّق بالعقيدة؛ فهي من باب الإيمان، أو بالظَّاهر؛ فهي باب من الإسلام.

أمَّا العقيدة؛ فيجب أن يكون عارفاً بعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في التَّوحيد، ماتريديَّةً أو أشاعرةً، فيعرف ما يجوز في حقِّ الله تعالى، وما يجب، وما يستحيل، وكذلك في حقِّ الرُّسل، ويكون على اطِّلاع في هذه العقيدة يسقط عنه كلَّ واجب فيها.

وأمَّا العبادة؛ فيكفي أن يفقه علم الصَّلاة، شروطُها وواجباتها وأركانها، وأحكام الحجِّ، والصِّيام، والزَّكاة إن كان عنده مال، والعلم بصنعته إن كان يكسب من صنعة، وطرائق الكسب منها، والعلم بالحرام بصورة عامَّة، وهذا من علم المعاملة.

ب- معرفته بالله تعالى: وبعد أن عرف هذا المربِّي عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة علماً، يجب أن يتحقَّق بها عملاً أو ذوقاً، فيشهد في قلبه وروحه صحَّتها، قد شهد وحدة الأفعال والصِّفات والذَّات، وأخذ من حضرات الأسماء ما شاء الله، والنَّاس في هذه المعرفة على مراتب حسْب تحقُّقهم، فمن وصل إلى وحدة الأفعال فهو مرشد إليها، ومن شهد وحدة الصِّفات بعدها فهو مرشد، ومن شهد وحدة الذَّات فهو مرشد، ولكنَّ أحداً منهم لا يستطيع أن يوصل إلا إلى ما وصل إليه.

١- شطرنج العارفين: ص٤٩-٥٠.

والشَّيخ (المرشد) الكامل من تحقَّق بالثَّلاث، ومن لم يجده فوجد الأَّول فليصحبه، فإن أوصله إلى ما هو واصل إليه فليكمل معرفته على ثان في المرتبة الثَّانية إن وجده وثالث كذلك.

جـ- معرفته بتزكية النَّفس: ولابد لهذا المرشد أن يكون قد زكَّى نفسه على يد مربٍّ ومؤدِّب، وعرف مراتب النَّفس ومداخلها وتلبيساتها، وهجمات الشَّيطان وأساليبه، وخبر آفات كلِّ مرحلة من السَّير ومخاطرها والسَّلامة منها، وأنَّ الله تعالى ما أنزل داءً إلا وأنزل له دواء، وعرف لكل داء علاجه.

قال الشَّيخ الغزالي: "وكذلك الشَّيخ المتبوع الذي يطبِّب نفوس المريدين، ويعالج قلوب المسترشدين، ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرِّياضة والتَّكاليف في فنٍّ مخصوص، وفي طريق مخصوص، ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم، وكما أن الطَّبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم؛ فكذلك الشَّيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرِّياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد، وفي حاله، وفي سنِّه ومزاجه، وما تحتمله بنيته من الرِّياضة، ويبني على ذلك رياضته"[1].

د- ثمَّ لابد أخيراً أن يكون هذا الشَّيخ قد أجيز من أشياخه بهذه التَّربية وهذا السَّير وذلك العلم، حتى يعلِّمه للنَّاس، فإنَّ إنساناً لا يشهد له أصحاب علم من العلوم الأخصائيين فيه أنه عالم به عارف لمنهجه ويستطيع أن يعلم غيره، لا يجوز له أن يتصدَّر في هذا الفنّ، وإن فعل فهو مجرم أمام الله تعالى مخادع للنَّاس، ضرره أكثر من نفعه، وضلاله أكبر من هدايته.

وعلى أساس هذه القاعدة كانت إجازات المشايخ في جميع العلوم الإسلامية في الماضي، وعليه كذلك أسِّست فكرة المدارس والجامعات.

فالذي لا يحمل الدّكتوراه في الطبِّ لا يجوز له أن يفتح عيادة لمداواة المرضى، وإن فتح فهو مسؤول عن أخطائه، ومن ذا الذي يسلِّم لرجل يدَّعي الطبَّ بإبرة يحقنه إياها في العضل أو في العرق، والذي لا يحمل شهادة المهندس لا يطمئنُّ له إنسان في بناء بيته الجميل على ضفة نهر أو في أرض ما، والذي لا يحمل شهادة كلِّيَّة الشَّريعة لا يسمح له بالتَّدريس في المدارس الثَّانوية إلا إذا أبرز شهادة، ونجح في مسابقة المدرِّسين.

فلماذا أنكر النَّاس على القوم فكرة الإجازة من الأشياخ؟ وهي مسألة مسلم بها بداهة في أبسط فكر، وفي عالم العلم في الماضي والحاضر، وستظل في المستقبل طريقة الحكم على العلماء واختصاص الأخصائيين، وكلُّ من دَرَسَ التَّاريخ الماضي يعرف قيمة الإجازة من الأشياخ وأهمية التَّلقِّي عندهم، وذلك أصل أصيل في علوم الشَّريعة الإسلاميَّة، ولم يصحَّ لغيرها مثله في دقَّة نقله، حتى أنهم أطلقوا على من لم يأخذ علمه من الأشياخ اسم (الصّحفيّ)، لأنَّه أخذ علمه من

١- إحياء علوم الدِّين: ٦١/٣.

الصُّحف والمطالعة الخاصَّة، وذلك فيه سرٌّ ومعنى دقيق: "إنَّ هذا العلم دِيْنٌ، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم"[1].

ويجمع الكلَّ قول السَّيِّد الهاشميِّ رحمه الله تعالى: "فمن نعمه تعالى علينا أن أوجدنا من العدم بقدرته على وَفْقِ إرادته، وخصَّصنا بإرادته على وفق علمه، وكلَّفنا بمعرفته وطاعته، ويسَّر لنا أسبابها بحكمته، فسيَّرنا بإرادته وقدرته، وعلَّمنا بحكمته منازل الطَّريق الموصلة إليه، وأمرنا باتخاذ الرَّفيق والدَّليل، وبيَّن لنا الآفات، وأوضح لنا السَّبيل، وأمرنا بشريعته أن نسرع في بعض المنازل ولا نقف، وأن نقف في بعضها ونستريح، ونعرف[2]، ونستأنف.

فاسلُك يا أخي على يد مربٍّ، حيٍّ، عارف بالله تعالى، صادق نَّاصح، له علم صحيح، وذوق صريح، وهمَّة عالية، وحالة مرضية، سلك الطَّريق على يد المرشدين، وأخذ أدبه عن المتأدِّبين، عارف بالمسالك ليقيك في طريقك المهالك، وليدُلَّك على الله تعالى، ويعلِّمك الفِرار ممَّا سوى الله تعالى، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله تعالى.

يوقفك على إساءة نفسك، ويعرِّفك بإحسان الله تعالى إليك، فإذا عرفته أحببته، وإذا أحببته جاهدت فيه، وإذا جاهدت فيه هداك لطريقه واصطفاك لحضرته، قال تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينَّم سُبُلَنَا}، (العنكبوت: ٦٩).

فصحبة الشَّيخ والاقتداء به واجب، والأصل فيه قوله تعالى: {واتَّبع سبيل من أناب إليّ}، (لقمان: ١٥)، وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصَّادقين}، (التَّوبة: ١١٩).

ومن شرطه أن يكون له الإذن في تربية الخلق من مرشد كامل، ذي بصيرة نافذة، ولا يقال أين من هذا وصفه؟ لأنَّا نقول كما قال في لطائف المنن: لا يُعْوِزُكَ وجودُ الدَّالِّين، وإنَّما يُعوزك وجود الصِّدق في طلبهم، جِدَّ صدقاً تجد مرشداً.

ألا إنَّ سرَّ الله في صدق الطَّلب ... كم رِيءَ في أصحابه من العجب

وقال في لطائف المنن أيضاً: إنَّما يكون الاقتداء بوليٍّ دلَّك الله تعالى عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصيَّة لديه، فطوى عنك شهود بشريَّته في وجود خصوصيَّته، فألقيتَ إليه القياد فسلك بك سبيل الرَّشاد"[3].

٢- وأما شروط الكمال؛ فكثيرة نعدُّ منها:

أ- أن يكون عالماً بالكتاب، وعلى اطِّلاع واسع في السُّنَّة، قد قرأ الكتب الستَّة على الأقل، وأن يكون فقيهاً في فروع مذهبه كلِّها؛ بل والمذاهب الأربعة، ومحيطاً بالسِّيرة النَّبويَّة ودقائقها وتاريخ الإسلام.

١- رواه مسلم، باب في أنَّ الإسناد من الدِّين.

٢- أي نعرف سرَّ هذه الاستراحة.

٣- شطرنج العارفين: ص١٧-١٨.

ب- وأن يكون بحراً في علم التَّوحيد على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة (الأشاعرة والماتريديَّة)، وأن يعرف عقائد الفرق الضَّالَّة والمذاهب التَّوحيديَّة، وأن يكون على علم بالآخرة وأهوالها وأحوالها، حتى يكون أهلُ الجنَّة في الجنَّة، وأهلُ النَّار في النَّار.
جـ- وأن يكون على بساطة العيش، وعلى قدم الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في الإنفاق، لا يبيت على معلوم، زاهداً في الدُّنيا قلباً وقالباً.
د- بل منهم من شرط رتبة الاجتهاد.
وهذه الشُّروط كانت في زمانهم شروط وجوب في العصور الأولى عند المتقدِّمين، حيث كان أمثال أبي حنيفة والجنيد موجودون بكثرة، لذلك نرى في عبارات المتقدِّمين من القوم كثيراً من الكلمات التي تفيد وجوب تلك الشُّروط العالية، كقولهم: "الصُّوفيُّ لا مذهب له"، أي هو مجتهد وليس بمقلِّد، إذا صحَّ الحديث فهو مذهبه، ومن أين له بمعرفة الحديث الصَّحيح وعدم نسخه إلا إذا كان على درجة من العلم.

واسمع قول الإمام الجنيد تتَّضح لك الشُّروط التي اشترطوها في الأشياخ المربِّين: "ما يستحقُّ الرَّجل أن يكون شيخاً حتى يأخذ حظَّه من كلِّ علم شرعي، وأن يتورَّع عن جميع المحارم، وأن يزهد في الدُّنيا، وأن لا يشرع في مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه، حتى يكون على علم يَهدي به العباد، فإذا مرض مريده بسبب شبهة في علم التَّوحيد داواه، أو تحيَّر في مسألة من مسائل الفقه أفتاه، مع قناعة تورثه الغنى عن النَّاس، وخوف يحجزه عن المعاصي والأدناس، وملازمته العمل بالكتاب والسُّنَّة".

ثمَّ قال: "وإيَّاك ومتابعة من لم يكن على هذه الأوصاف فإنَّه من جنود الشَّيطان، واعتبر أقواله وأفعاله وأحواله وزِنها بميزان الشَّريعة والطَّريقة؛ فإن رأيت شيئاً مخالفاً لهما فردَّه، فإن كان صاحب حال صحيح ورددته فما عليك من ردِّه بحكم الشَّرع، ولا تتَّخذه شيخاً ومرشداً"[1].

ولكنَّ هذا في زماننا ليس بمتوفِّر في المربِّين بهذه الشُّروط العالية النَّادرة، على أن علم المعرفة والتَّزكية نفسه – وهو اختصاص القوم – لم ينقص منه ذرَّة واحدة، وإن لم توجد فيهم الشُّروط الظَّاهريَّة، والإمكانيَّات العلميَّة السَّالفة الذِّكر، فالمرشدون موجودون لا ينقطعون إلى قيام السَّاعة، يعرِّفون على الله تعالى ويدلُّون النَّاس عليه.

وإنَّ منهم والهاً لا يدانى في معرفته وأخلاقه وتربيته وتأديبه، عرف الله تعالى حقَّ معرفته، وقطع عقبات نفسه، وهو على استعداد لخدمة عباد الله تعالى، لا يبغي بذلك أجراً ولا جزاءً ولا شكوراً، ولا يرمي من وراء ذلك إلى منصب أو تأليه أو أستذة، بل يصحب الطَّالب على أنَّه رفيق وصديق ناصح وأخ مخلص، إلى أن يُزَجَّ به في حضرة الحقيقة ويقول له: ها أنت وربُّك.

١- نور التَّحقيق: ص١٣٩.

٣- الاعتقاد بالشَّيخ (المرشد): وينبغي أن لا يعتقد في الشَّيخ العصمة، فإنَّما هي للأنبياء فقط، وأمَّا غيرهم فهو إنسان عاديٌّ عارفٌ باختصاصه، يخطئ ويصيب، ويسدَّد ويقع، يقوم بالنَّصيحة ويعطي الملاحظات، ويناقَشُ في كلِّ أمر يخالف الشَّرع في العقائد، أو العبادات، أو السُّنن والأخلاق.

فمن آداب الصُّحبة إذاً أن لا يصحب الشَّيخ (المرشد) على أنَّه معصوم، فإنَّك إن صحبته على ذلك فارقته بأول وقعة، ولن تدوم صحبته، هذا أساسها، إلا صحبة نبيّ، وكلُّ إنسان يخطئ ويصيب، ويقول ويردُّ عليه، إلا السَّيِّد الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، نعم: أمَّا أن يناقش في أوامره التَّربوية وطرائقها التَّهذيبية ما دامت في حدود المباح؛ فإنَّ ذلك في طرقهم خلافُ الأدب، ولا يفيد المريدُ من شيخه شيئاً إذا هو جادله، أو تردَّد في تنفيذ أوامره، وفي هذا يقولون: (ما أفلح من قال لشيخه: لِمَ)، (متردِّدٌ لا يفلح).

وإنَّما للأولياء الحفظ لا العصمة، والوليُّ في تعريف الله تعالى: {ألا إنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتَّقون}، (يونس: ٦٢).

يقول صاحب نور التَّحقيق: "هذا ولا يصحُّ أن يعتقد المريد في شيخه العصمة، ولكن يعتقد أنَّه عالم بالله تعالى، ناصح لخلق الله تعالى". قال أبو قاسم القشيري: إنَّ المعصوم لا يُلِمُّ بذنب أَلبتَّة، والمحفوظ قد تحصل منه هَمَّات، وقد يكون في النُّدرة زَلَّات، ولكن لا يكون له إصرار، أولئك الذين يتوبون من قريب"[١].

٤- طريقة الشَّيخ (المرشد) في التَّربية:

طرائق التَّربية العامَّة ثلاث في خطوطها الرئيسيَّة: التَّربية بالكلام؛ (وهي التَّربية القوليَّة)، والتَّربية بالتَّمثُّل والحال؛ (وهي التَّربية العمليَّة)، والتَّربية بالتَّوجُّه؛ (وهي التَّربية الرُّوحيَّة) ولو بدون اتِّصال؛ أمراً ورؤية حال.

وهذه الطَّرائق الثَّلاثة لا تعرف الدُّنيا منها إلا الاثنين الأوليين فقط؛ التَّربية القوليَّة والحاليَّة، هذا من حيث المعرفة، وأمَّا من حيث الواقع العمليِّ فلا نرى فيه إلا القول – هو الأوَّل والآخر – من طرائق التَّربية عند مربي هذا الزَّمان، وأساتذته، وموجِّهيه، وعلمائه، إلا المخلصَ منهم فإنَّه يتمثَّل بحاله ويرمي بِقَالِه.

وأمَّا القوم رضي الله عنهم فإنَّهم عرفوا الطَّرائق الثَّلاثة في التَّربية، وطبَّقوها في عالم واقعهم، بل نستطيع أن نقول إنَّهم الأخصائيُّون في النَّوع الثَّاني والثَّالث من أنواع التَّربية، وخاصَّة آخِرَهَا، لأنَّا نُقدِّر استحالته عند غيرهم على الإطلاق؛ ولنفصِّل هذه الطَّرائق كما يلي:

١- طريقة النُّصح والوعظ بالكلام (وهي الطَّريقة القوليَّة): أولى الطَّرائق التَّربويَّة وأدناها درجة في التَّأثير، مع أنَّه لا غنى عنها أَلبتَّة، فلو كان النَّاس خرساً لما استطاعوا أن يفهموا حقيقة، أو يفقهوا رأياً، ويتوجَّهوا لخير، هذا مع تقدير أنَّه لا إشارة بينهم، لأنَّها عندهم بمثابة القول، وهذه الطَّريقة القوليَّة ساروا فيها على

١- نور التَّحقيق: ص١٤٠.

نهج النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في النُّصح والتَّربية، فاشترطوا لها شروطاً ووضعوا لها حدوداً حتى تكون مجدية:

أ- فهم لا يسمحون لإنسان أن يتصدَّر لإرشاد النَّاس ووعظهم وتوجيههم؛ إلا بعد أن يكون قد طبَّق على نفسه ما يقدِّمه للنَّاس، وأقامه في بيته، وصدقت فيه عقيدته، وحسُنت سريرته، واحترق له قلبه، وانفعل معه كأنَّه هو العبارة والنَّصيحة، عند ذلك يسمحون له بالقول، لأنَّهم على اعتقاد أن ما خرج من اللِّسان لا يتجاوز الآذان، وما خرج من القلب يقع في القلب، فإنسان يقول بلسانه ولا يصدِّقه قلبه، ولا تستجيب لعباراته جوارحه، وما أقام نصيحته في نفسه وأهل بيته، ذلك نستطيع أن نصفه بأنَّ عضلاتٍ لحميَّةً في فمه تتحرَّك بحركات إراديَّة ومعها اهتزازات صوتيَّة.

ب- إخلاص نيَّة النَّاصح لله تعالى؛ فإنسان لم يخلص بنصيحته لله تعالى لا يستجاب له، ذلك لأنَّ من تصدَّر لإرشاد النَّاس لوجدان القبول عند العامَّة، أو شهرةٍ، أو منصبٍ، أو مالٍ وجاهٍ، ففي نصيحته حظٌّ للنَّفس، وما دخلت النَّفس الأمَّارة في شيء إلا أفسدته وأنتنته، وهم يقولون: العبارة قوت المريدين.

وكيف يأكل المريدون عبارة أنتنت وأفسدتها عليهم النَّفس، وتجد نفس الشَّيء عند العامَّة، لأن العبارة تخرج من الفم وعليها كسوة الباطن، فإن كان الباطن مستنيراً خالصاً من شوائب النَّفس متوجهاً إلى الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؛ لقيت القبول والاستجابة، وأما إن كان الباطن فاسداً مظلماً، خرجت العبارة وعليها من ظلمة الباطن مما يجعلها تَطِيْشُ عنها العقول، وتضلُّ القلوب، وتقع أرضاً، ولا تَلقى فكراً تأوي إليه، أو نفساً تستجيب لها.

جـ- وهم يتخوَّلون النَّاس بالموعظة، لا يعظون على الدَّوام، لأن القلوب تملّ، وإذا كلَّت عميت عن أن تستجيب، لذلك تجدهم يخصِّصون لأنفسهم ساعات، وللعامَّة أوقات، أمَّا أنَّهم يعاملون النَّاس معاملة آليَّة فذلك ليس عندهم، لأنهم عرفوا إمكانيات النُّفوس واستعداداتها وتحمّلها، وهذه الفكرة دعاهم إليها سببان اثنان:

الأوَّل: أنَّهم يعتقدون أنَّ إصلاح أنفسهم فرض عين، وإصلاح العامَّة فرض كفاية، والموفَّق من جمع بين الاثنين بلا تعارض، أمَّا متى رأو أنَّ تعارضاً سيقع؛ وخاصَّة إذا كان هذا التَّعارض على حساب الفرض العينيِّ تراهم وقفوا عن السَّير، وأحكموا الخطَّة من جديد، ورسموا الطَّريق المتوازن المعتدل بلا تعطيل ولا إهمال، ثمَّ أتمُّوا ما ابتدؤوا.

الثاني: أنَّ عند النُّفوس استعداداً محدوداً للسَّماع، متى انتهى هذا الاستعداد أو زيد عن حدِّه؛ انقلب مفعول الإفادة إلى ضدِّه، وهذا شيء يقرُّه المنطق والعقل السَّليم، ويشهدونه بأذواقهم في جلساتهم التَّوجيهيَّة، إذ تتعكَّر عليهم الجِلسة، وتنعكس عليهم القلوب إذا أطالوا ساعة الوعظ عن حدِّها المعقول، لذلك لم

يصرف القوم أوقاتهم كلَّها لهذه الوظيفة، وكانت لهم ساعات مع ربهم، وساعات مع أنفسهم، وساعات مع العامَّة.
د- ويحتاج من تصدَّر للإرشاد والتَّوجيه إلى معرفة من نوعٍ خاص، وهي معرفة متى ستجدي العبارة ويسري مفعولها عند المنصوح، وهذا فنٌّ أصيل عند القوم برعوا فيه، ذلك لأنَّ كلامهم ثمين عندهم، فإلقاؤه هكذا بدون تأكُّدهم من إصابة عين الهدف؛ من المجازفة بشيء غالٍ، أو كالذي يطرح المجوهرات والذَّهب في النَّجاسة، فلذا كان لا بدَّ للنَّاصح الموجِّه من معرفة:
١- الاستعداد لقبول النَّصيحة وعدمه، حتى لا تضيع الفائدة، وحتى تنفع الذِّكرى.
٢- ومعرفة أساليب جمع الفكر وتفريغ القلب للمنصوح، حتى لا يشغله شاغل عمَّا تُلقيه إليه، فإنَّ إنساناً شغل قلبه شيء وتمكَّن في خاطره متمكّن، إنّما يتطاير الكلام من فوق رأسه وجوانب أذنيه، ولا يسمع ما تقول، أعني السَّماع الحسِّيَّ حتى، وكم من إنسان شغلته فكرة؛ وتهدَّم بيته عليه، أو أصيب بجراح، وقَصَفَتِ المدافع بجانبه وهو مستغرق في فكرته، ذاهل عن عالمه، فمعرفة الاستعداد لقبول النَّصيحة، ومعرفة إيجاد هذا الاستعداد من شرائط النَّجاح الهامَّة في سريان الموعظة إلى الآخرين.
هـ- لا بدَّ للشَّيخ (للمرشد) من ميزان دقيق لمعرفة المستويات التي يخاطبها في توجيهه، حتى لا يُفْتَنَ النَّاس – خاطبوا النَّاس على قدر عقولهم –، وتَضِلَّ العقول، وهذا كذلك شرط صعبُ الكشف، ولو فرضنا سهولته يصعب علينا الانسجام معه، والموفَّق من أُلهم هذا الطَّريق، وأعطي ملكة التَّدني والارتفاع كما ينسجم الزِّئبق، يَصْدُقُ مع درجة حرارة الجوِّ الذي وضع فيه، وإنّما قدَّمت التَّدنِّي على الارتفاع لأنَّ الأكثرين يعرفون الاستعداد المتفاوت بين المستمعين؛ ولا يحاولون التَّقارب منهم، وكلُّ النَّاس إلا ما ندر يجهلون هذه العبارات أشدَّ الجهل، ولا يعرفون أنَّ اختلاف المستوى فتنة.
و- كذلك هم مع هذا كلِّه لا يتركون الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وإن لم يتحقَّقوا بالشُّروط السَّالفة الذِّكر، لكي لا يشيع الفساد بين النَّاس، وتطبيقاً لسنَّته ورسالته عليه الصَّلاة والسَّلام.

٢- طريق التَّربية العمليَّة:

وتسمى في عرفنا بطريقة الإيحاء العملي، وهذه أعلى من الدَّرجة الأولى وأنجعُ في التَّربية منها، وقد رأيت أنَّ هذه الطَّريقة عند القوم إنّما هي منطوية في الطَّريقة الأولى، لأنهم شرطوا قبل القول العمل، وقبل النُّصح التَّطبيق على النَّفس، ولكنَّنا إنّما نفردها ببحث مستقلٍّ على فَرْضِ انعدام القول معها؛ ذلك لأنَّها في الواقع أشدُّ أثراً في النُّفوس من مجرَّد القول والنُّصح.

إنَّ طريقهم في تربية النُّفوس، وتنوير الأرواح، وإحياء القلوب، ليست مبنيَّة على الجدل وكثرة الكلام، والإفراط في النُّصح والإرشاد اللفظي الذي كثيراً ما يلجأ إليه غيرهم، إذ تلقين المبادئ والأفكار والمعاني تلقيناً نظريَّاً جدواه قليلة جداً.

أمَّا تحقيق الغاية المرجوَّة، والغرض المنشود، فلا يتمُّ على الوجه الأكمل المراد إلا بوجود مثال حيٍّ يُقتفى أثره، ويحتذى حذوُه، وتتَّبعُ آثاره، فتظهر على أتباعه علائم الخير والشَّر، ودلائل الإيمان والنُّور واليقين، إذ لا بدَّ لحامل المسك مهما حاول إخفاء ما عنده من الطِّيب أن تجد عنده ريحاً طيِّبة إذا كانت حاسَّتنا سليمة.

ووجود الشَّيخ (المرشد) المثالي في جماعة ما؛ أشدّ تأثيراً وأكبر فعلاً في إيجاد المثاليَّة وسريان الحب والإيمان في أتباعه ومجالسيه ومحبِّيه، من مئات المحاضرين وألوف المجلدات.

وربَّما كان أقوى عامل في سمو مثالية أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تأثُرُ قلوبهم، ونفوسهم، وعقولهم، بمثاليَّة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، بهذا يتحدَّث عمر بن الخطاب حين يزور أبا عبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنهما فيقول: "كُنَّا تغيَّر بعد رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام إلا أنت".

وهذه الفكرة الواضحة العمليَّة النَّاجحة تبنى على أن الإيحاء العمليَّ أقوى وأشدُّ تأثيراً من الإيحاء القولي، فإذا قلت لطفلك لا تخف حين كنت ترتعش من الخوف، كان سريان عدوى خوفك إليه أقوى ألف مرَّة من الأقوال التي تقوم بها من وجوب عدم الخوف، مهما كانت بليغة مؤثِّرة، وإذا أردت أن توقد روح الحماس والحبِّ والإيمان في أبنائك وإخوانك؛ فلا بدَّ أن تكون متَّقداً إيماناً، ومشتعلاً حماساً، وهائماً حبَّاً.

والحماس والإيمان المتكلَّف لا ينتج إلا حماساً وإيماناً كاذباً متكلَّفاً، قال الغزالي:

"إن الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلب عبده عطية وهدية من عنده، تارة بتنبيه في الباطن لا يمكن التعبير عنه، وتارة بسبب رؤيا في المنام، وتارة بمشاهدة حال رجل متديِّن وسراية نوره حواليه عند صحبته ومجالسة، وتارة بقرينة حال.

فقد جاء أعرابي إلى رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام جاحداً منكراً، فلمَّا وقع بصره على طلعته البهيّة فرآها يتلألأ منها أنوار النُّبوَّة قال: "والله ما هذا بوجه كذَّاب"[1]. وسأله أن يعرض عليه الإسلام فأسلم ... وهذا وأمثاله أكثرُ من أن يحصى، ولم يشتغل واحد منهم بالكلام ويعلم الأدلَّة ... فليت شعري متى نقل عن رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام أو عن الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم قالوا لأعرابي: أسلم بدليل أن العالم حادث، وأنَّه لا يخلو من الأعراض، وما لا يخلو من الحوادث حادث، أو غير ذلك من رسوم المتكلِّمين؟"[2].

وعليه فالشَّيخ (المرشد) عندهم من وَرِثَ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وراثة كاملة ظاهرة؛ بالأقوال، والأفعال، والحركات، والسَّكنات، وباطنة؛ بالإيمان،

١- جاء في مسند الإمام أحمد عند الحديث رقم (٢٣٧٨٤): " عن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: لمَّا قدم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم انجفَل النَّاس عليه، فكنت فيمن انجفَل، فلمَّا تبيَّنت وجهه عرفت أنَّ وجهه ليس بوجه كذَّاب، فكان أوَّل شيء سمعته يقول: "أفشوا السَّلام، وأطعموا الطَّعام، وصِلوا الأرحام، وصلُّوا والنَّاس نيام، تدخلوا الجنَّة بسلام".

٢- صون المنطق والكلام: ٢٣٨/١.

واليقين، والتَّوكُّل، والتَّواضع، والإخلاص، والحبّ، يقول السَّهروردي: "ورتبة المشيخة من أعلى الرُّتب في طريق الصُّوفيَّة، ونيابة النُّبوَّة في الدُّعاء إلى الله تعالى"[1].

لذلك كان رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام لا يأمر أصحابه أمراً إلا إذا كان متمثِّلاً له، وكيف لا يكون القدوة الصَّالحة لهم في كلِّ شيء من الخير والمعروف، وقد كان خُلقه القرآن الكريم، متمثِّلاً له عمليَّاً في سلوكه البيتي، وفي المسجد، والحرب، والجماعة، والسَّفر، والحضر، والسُّوق.

فكان إذا حدَّثهم عن التَّواضع احتاج السَّامع إلى أن يراه حتى يتعرَّفه حق التَّعرف، فيرى أن التَّواضع ممثَّلاً فيه عليه الصَّلاة والسَّلام، وإذا حدَّثهم عن الكرم كان الصَّحابي يرى كلَّ الكرم يتمثَّل فيه، فهو في كرمه كالرِّيح المرسلة، لا يبيت على معلوم، وكان إذا حدَّثهم عن الجهاد والشَّجاعة يراه في المعارك في عين العدو، كلُّ النَّاس فارِّين وبغلته عليه الصَّلاة والسَّلام تتقدَّم في نحر العدو، ولذا يقول علي رضي الله عنه: "كنَّا إذا حمي الوطيس لُذنا برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم".

وما أبشع أن يكون الإنسان متناقضاً مع ذاته ومع مبادئه التي ارتضاها لنفسه، إنَّ التَّناقص في الذَّات ومخالفة الإنسان مبدأه الذي رضيه لنفسه في الحياة هو سبب فشل الدَّعوات، وإنَّ الانسجام مع المبدأ والالتئام معه هو سبب النَّجاح، وإن كان المبدأ في حدِّ ذاته ضالاً فاسداً فاشلاً، وهذه الفكرة في رأيي هي السَّبب الوحيد لضياع الإسلام في هذا القرن وفشل الدَّعوات الإسلامية وخرابها كذلك.

٣- طريقة التَّربية بالتَّوجيه الرُّوحيِّ: وهذه التَّربية وهذا النَّوع منها انفرد به القوم عن غيرهم، فلا هي موجودة عند الرُّوحانيين فيما يزعمون من أصحاب الدِّيانات الضَّالة، ولا عند الأطباء النَّفسانيين، ولا عند أطباء الأبدان، ولا عند المنوِّمين المغناطيسيين، ولا عند الفلاسفة الإشراقيين.

تلك طريق ورثها القوم من حال وتوجيه السَّيِّد الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وهي طريق التَّربية الحقَّة التي تقتلع من جذور النَّفس أصل الأمراض المتحكِّمة فيها، من شكوك ورياء وكبر، وما إلى ذلك من الأمراض الخطيرة التي تهلك الإنسان، وتقضي عليه وعلى قبول أعماله.

وهي الطَّريقة التي ترقى بالنَّفس الإنسانيَّة إلى مستوى العقل؛ فالقلب، فالرُّوح، ومنها إلى أعلى مراتب الإيمان، إيمان الإحسان (الشُّهود)، كما في حديث حنظلة[2]،

١- عوارف المعارف: ٩٤/١.

٢- عن حنظلة الأُسَيْدِيِّ رضي الله تعالى عنه قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، يذكِّرنا بالنَّار والجنَّة حتى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنَّا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "وما ذاك؟"، قلت: يا رسول الله: نكون عندك تذكِّرنا بالنَّار والجنَّة حتى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، =

هذه الطَّريقة في التَّربية لها أثر في السَّريان والإنتاج، سواء وُجِدَ الكلام أم لم يوجد، وسواء وُجِدَ التَّوجيه والطَّريقة القوليَّة أم لا، وسواء رأيت الحال العملي لهذا الشَّيخ (المرشد) المربي – حتى تقتدي بعالم اجتمعت معه مجرد اجتماع واحد في جلسة واحدة – أم لا.

وأحد من النَّاس لا ينكر سريان الحال السَّليم والرُّوح الطَّيبة والنُّور من قلب إلى قلب بمجرَّد الاجتماع، وأنَّ الظُّلمة تتشرَّبها النَّفس من النَّفس بمجرَّد المجالسة، يدلُّ على هذا حديث الجليس الصَّالح والجليس السُّوء[1].

أصول هذه الأفكار في الكتاب والسُّنَّة:

١- التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة:

أولاً: الحثُّ على التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة:

١- من الكتاب:

أ- {وأطيعوا الله وأطيعوا الرَّسول}، (المائدة: ٩٢).

ب- {من يطع الرَّسول فقد أطاع الله}، (النِّساء: ٨٠).

جـ- {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}، (آل عمران: ٣١).

د- {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً}، (الأحزاب: ٢١).

هـ- {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثمَّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممَّا قضيت ويسلموا تسليماً}، (النِّساء: ٦٥).

٢- ومن السُّنَّة:

أ- عن أبي شريح الخزاعي رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: "أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله؟"، قالوا: بلى. قال: "إنَّ هذا القرآن سببٌ، طرفه بيدي الله تعالى، وطرفه بأيديكم، فتمسَّكوا به، فإنَّكم لن تضِلُّوا، ولن تهلِكوا بعده أبداً"[2].

ب- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام خطب بالنَّاس في حجَّة الوداع، فكان مِمَّا قال: "إنِّي تركت فيكم ما إن تمسَّكتم به فلن تضلوا أبداً؛ كتاب الله وسنَّة نبيِّه"[3].

= عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، نسينا كثيراً، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعة". ثلاث مرَّات. (رواه مسلم، رقم (٢٧٥٠)).

١- قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "مثل الجليس الصَّالح والجليس السُّوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إمَّا أن يُحْذِيَكَ، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحاً طيِّبة، ونافخ الكير: إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد ريحاً خبيثة". (رواه البخاري، رقم (٥٥٣٤)).

٢- المعجم الكبير للطَّبراني، رقم (٤٩١).

٣- المستدرك للحاكم، رقم (٣١٨).

جـ- عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهو مرعوب فقال: "أطيعوني ما كنت بين أظهركم، وعليكم بكتاب الله؛ أحلُّوا حلاله وحرِّموا حرامه"[١].

د- عن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: وعظنا رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام موعظة ذرفت منها العيون، ووجِلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله كأنَّها موعظة مودِّع فأوصنا، قال: "أوصيكم بتقوى الله تعالى، والسَّمع والطَّاعة، وإن عبداً حبشيًّاً، فإنَّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء المهديين الرَّاشدين، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة"[٢].

ثانياً: ثمَّ إنَّ الاقتداء بالسُّنَّة عندهم لا يلتمسون له تعليلاً، والتَّقليد عندهم لمجرَّد التَّقليد لا لشيء زائد عليه، وهم لا يحاولون الوصول إلى العلَّة أو التَّعرف على درجة الحكم، بل متى صحَّ الحديث فهو مذهبهم، وكم يطبِّقون على أنفسهم سنناً ثبتت في الأحاديث الضَّعيفة التي هي فضائل الأعمال، كلُّ هذا ليطابق الهوى الهوى، والرُّوح الرُّوح، وكان هذا مذهب السَّلف:

١- عن عابس بن ربيعة رضي الله تعالى عنه قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقبِّل الحجر (يعني الأسود) ويقول: "إني أعلم أنَّك حجر، لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيت النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقبِّلك ما قبَّلتك"[٣].

٢- عن زيد بن أسلم رضي الله تعالى عنه قال: "رأيت ابن عمر يصلِّي مَحْلُولٌ أزراره"، فسألته عن ذلك فقال: "رأيت النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يفعله"[٤].

٣- عن مجاهد رضي الله تعالى عنه قال: "كنَّا مع ابن عمر في سفر، فمرَّ بمكان فحاد عنه، فسئل: لم فعلت؟". فقال: "رأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فعل هذا ففعلت"[٥].

٤- عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أنَّه كان يأتي شجرة بين مكَّة والمدينة فَيَقِيْلُ تحتها، ويُخْبِرُ أن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم كان يفعل ذلك[٦].

٢- الأخلاق:

أوَّلاً: الحثُّ على حسن الخلق في الكتاب والسُّنَّة – يتَّضح لك من خلاله سبب عنايتهم الزَّائدة بالأخلاق –:

١- المعجم الكبير للطَّبراني، رقم (٦٥). ولكن جاء في رواية الطَّبراني: "وعليكم بآيات الله". وفي رواية معاذ بن جبل: "فعليكم بكتاب الله". رقم (٥٦).

٢- سنن أبي داود، رقم (٤٦٠٧)، وسنن التِّرمذي، رقم (٢٦٧٦).

٣- رواه البخاري، رقم (١٥٩٧).

٤- صحيح ابن خزيمة، رقم (٧٧٩)، وسنن البيهقي، رقم (٣٢٩٦).

٥- مسند الإمام أحمد، رقم (٤٨٧٠).

٦- مسند البزَّار، رقم (٥٩٠٩).

١- في الكتاب:
أ- {وإنَّك لعلى خلق عظيم}، (القلم: ٤).
ب- {التَّائبون العابدون الحامدون السَّائحون الراكعون السَّاجدون الآمرون بالمعروف والنَّاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشِّر المؤمنين}، (التَّوبة: ١١٢).
جـ- {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً}، (الفرقان: ٦٣).
د- {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكَّل على الله إنَّ الله يحبُّ المتوكِّلين}، (آل عمران: ١٥٩).
هـ- {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، (الأعراف: ١٩٩).
٢- في السُّنَّة:
أ- عن أبي الدَّرداء رضي الله تعالى عنه أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: "ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإنَّ الله ليُبْغِضُ الفاحش البذيء"[١].
ب- عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن أكثر ما يدخل النَّاس الجنَّة، فقال: "تقوى الله وحسن الخلق"، وسئل عن أكثر ما يدخل النَّاس النَّار، فقال: "الفم والفرج"[٢].
جـ- عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام: "إنَّ من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وألطفهم بأهله"[٣].
والأحاديث في الباب كثيرة جداً، ويكفيك مرجعاً المجلَّد الثَّالث من كتاب "التَّرغيب والتَّرهيب" للحافظ المنذري لتجد ما يكفيك.
ثانياً: فَرْضِيَّة التَّزكية: وإليك إثبات فَرْضِيَّة تزكية النَّفس من الكتاب والسُّنَّة وأقوال العلماء:
أ- من الكتاب:
١- {قل إنَّما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن}، (الأعراف: ٣٣).
٢- {ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن}، (الأنعام: ١٥١).
والفواحش الباطنة هي كما قال المفسِّرون ليست إلا: الحقدَ، والحسدَ، والرِّياءَ، ... إلخ، وأمَّا الظَّاهرة فمعروفة.
من السُّنَّة:
١- كلُّ الأحاديث الواردة في النَّهي عن الحقد، والحسد، والرِّياء، والكِبر، والعُجب، ...إلخ، والآمرة بحسن الخلق والمعاملة.

١- سنن التِّرمذي، رقم (٢٠٠٢).
٢- سنن التِّرمذي، رقم (٢٠٠٤).
٣- سنن التِّرمذي، رقم (٢٦١٢).

٢- ما يرويه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: "الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون – شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطَّريق، والحياء شُعبة من الإيمان"[١].

وأنَّ الصِّفات الباطنةَ الحسنة من شعب الإيمان، وأنَّ الأمراض والنَّجاساتِ الباطنةَ لا يتساهل الشَّارع الحكيم حتى فيما يعادل الذرَّة منها، وهي كافية لإحباط العمل ولو كان يوازي عمل الثَّقلين.

جـ- وأما أقوال العلماء: فقد عدُّوا هذه الأمراض من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلَّة، قال في جوهرة التَّوحيد:

وَأْمُر بعرف واجتنب نميمهْ ... وغيبةً وخصلةً ذميمهْ
كالعجبِ والكِبر وداء الحسد ... وكالمِراء والجَدَل فاعتمد

يقول شارحها عند قوله كالعجب: "هو رؤية العبادة واستعظامها من العبد، فهو معصية متعلّقة بالعبادة، هذا التّعلّق الخاص". ثمَّ يقول: "فهذا حرام".

ويقول كذلك: "ومثل العجب الظُّلم، والبغي، والمراية، والغشُّ، والخديعة، والكذب بغير مصلحة شرعيَّة، وترك الصَّلاة، ومنع الزَّكاة ..."[٢].

فأنت ترى أنَّه يقرنها بترك الصَّلاة ومنع الزَّكاة، فهو إذاً من أمهَّات الكبائر، ومثله غيره من الأمراض.

ويقول صاحب رسالة: "ما يجب أن يعرفه كلُّ مسلم ومسلمة من أمر دينه"، في فصل: (فيما يجب على كلِّ عبد): "والواجب الثَّالث: تزكية النَّفس من الرَّذائل والأخلاق المذمومة، كحبِّ الدُّنيا والانهماك بها، بحيث تؤدِّي إلى نسيان الآخرة، والغضب، والحقد، والحسد، والعجب، والرِّياء، والاعتماد على الأسباب – أي من غير ملاحظة مسبِّبها –، وكذا الافتخار، والطَّمع، والبخل، وحبُّ الجاه، وغير ذلك".

ويقول صاحب الهديَّة العلائيَّة: "وقد تظاهرت نصوص الشَّرع والإجماع على تحريم الحسد، واحتقار المسلمين، وإرادة المكروه، والكِبر، والعجب، والرِّياء، والنِّفاق، وجملة الخبائث من أعمال القلوب، بل السَّمع، والبصر، والفؤاد، كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً، ممَّا يدخل تحت الاختيار"[٣].

ويقول صاحب مراقي الفلاح: "لا تنفع الطَّهارة الظَّاهرة إلا مع الطَّهارة الباطنة، بالإخلاص لله تعالى، والنَّزاهة عن الغلِّ، والغشِّ، والحقد، والحسد، وتطهير القلب عما سوى الله تعالى من الكونين، فيعبده لذاته لا لعلة، مفتقراً إليه، وهو يتفضَّل بالمنِّ بقضاء حوائجه المضَّطر بها عطفاً عليه، فتكون عبداً فرداً للمالك الأحد الفرد، لا يسترقُّك شيء من الأشياء سواه، ولا يستميلك هواك عن خدمتك إيَّاه. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى:

١- رواه مسلم، رقم (٥٨).
٢- حاشية الشنواني على إتحاف المريد: ص٦٣٦.
٣- الهديَّة العلائيَّة: ص٤٠٦-٤٠٧.

رُبَّ مستور سبته شهوته ...قد عَرِي من ستره وانتهكا
صاحب الشَّهوة عبد فإذا ... ملك الشَّهوة أضحى ملكا

فإذا أخلص لله تعالى؛ وبما كلَّفه به وارتضاه قام فأدَّاه، حفَّته العناية حيثمَّا توجَّه وتيمَّم، وعلَّمه ما لم يكن يعلم".

قال الطَّحطاوي في الحاشية: "دليله قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}، (البقرة: ٢٨٢)"[١].

٣- قابليَّة الأخلاق للتَّبدُّل:

ودليل هذا بديهيٌّ واضح، إذ لو لم يمكن تبديل الصِّفات وتغيير الأخلاق؛ لبطل التَّكليف، ولم يكن معنى للشَّريعة من أصلها، ولما كان للأمر والنَّهي معنى في الكتاب إلا اللَّعب والعبث، والله تعالى منزَّه عن هذا. {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحقّ}. (الدُّخان: ٣٨-٣٩). وقد وظَّفنا الله بوظيفة: {وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون}. (الذَّاريات: ٥٦).

٤- الأخلاق مقصودة من العبادات:

والدَّليل على ذلك؛ في الصَّلاة قال تعالى: {وأقم الصَّلاة إنّ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}، (العنكبوت: ٤٥). وفي الصَّوم قال تعالى: {يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصِّيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتَّقون}، (البقرة: ١٨٣).

ويقول عليه الصَّلاة والسَّلام: "والصِّيام جُنَّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث، ولا يّصْخَب"[٢].

وقال تعالى في الزَّكاة: {خذ من أموالهم صدقة تطهِّرهم وتزكِّيهم بها}، (التَّوبة: ١٠٣).

ويقول تعالى في الحجِّ: {الحجُّ أشهر معلومات فمن فرض فيهنَّ الحجَّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجِّ}، (البقرة: ١٩٧).

٥- التَّخلية والتَّحلية:

وقد مرَّ بك أنَّ القوم قسَّموا عملَّية الأخلاق إلى تخلية وتحلية، وعرفت ما هي الأخلاق التي يجب على العبد التَّخلّي عنها، والتي يجب التَّحقُّق بها من قول صاحب نور التَّحقيق، وقد قلت: إذا نحن تتبَّعنا شُعب الإيمان واحدة واحدة، والتي لا يكمل الإيمان بالله عزَّ وجلَّ إلا بتمامها، نجد أنَّ الصِّفات الخبيثةَ الباطنةَ والتَّخلّي عنها من شعب الإيمان، كما أنَّ الأوصاف الحسنة والتَّحقُّق بها من شعب الإيمان أيضاً.

واسمع إلى شارح رياض الصَّالحين عند حديث شعب الإيمان يقول: "فأعمال القلب والمعتقداتِ والنِّيات، تشتمل على أربع وعشرين خصلة؛ ومنها ١- محبَّة الله تعالى والحبِّ والبغض فيه. ٢- محبَّة النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه الصَّلاة عليه واتِّباع سنَّته. ٣- الإخلاص. ٤- ترك الرِّياء.

١- حاشية الطَّحطاوي على مراقي الفلاح: ١/١١٠.
٢- رواه البخاري، رقم (١٩٠٤).

٥- ترك النِّفاق. ٦- التَّوبة. ٧- الخوف. ٨- الرَّجاء. ٩- الشُّكر. ١٠- الصَّبر. ١١- الرِّضا بالقضاء. ١٢- التَّوكُّل والرَّحمة. ١٣- التَّواضع، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصَّغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الغضب.

وأعمال اللِّسان تشتمل على سبع خصال: التَّلفُّظ بالتَّوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلّم العلم وتعليمه، والدُّعاء، والذِّكر ويدخل فيه الاستغفار، واجتناب اللّغو"[١].

وإنَّا سنعرض بعض ما يجب على الإنسان أن يتخلَّى عنه، مدلّلين على ذلك بالكتاب والسُّنَّة، وما يجب عليه التَّحقُّق به كذلك، وذلك كعرض لمبدأ الفكرة لا على سبيل الاستقصاء، وإلا فالاستقصاء من اختصاص كتب الشُّعب وكتب السُّنَّة، فإنَّها مليئة بهذه الموضوعات.

ما يجب للإنسان أن يتخلَّى عنه:

١- الحسد: في الكتاب: {ومن شرِّ حاسد إذا حسد}، (الفلق: ٥).

وفي السُّنَّة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إيَّاكم والحسد، فإنَّه يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطب، أو قال: العشب"[٢].

وعن الزُّبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم؛ الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدِّين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنَّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أنبئكم بما يُثَبِّتُ ذلك لكم؟ أفشوا السَّلام بينكم"[٣].

٢- الكِبر والعجب: في الكتاب: {ولا تصعّر خدّك للنّاس ولا تمش في الأرض مرحاً إنَّ الله لا يحب كلَّ مختال فخور}، (لقمان: ١٨).

وفي السُّنَّة: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "قال الله عزَّ وجلَّ: الكبرياء رِدائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما، قذفته في النَّار"[٤].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كِبر"، قال رجل: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: "إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال، الكِبر بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس"[٥].

١- دليل الفالحين: ٣٦٣/٢.
٢- رواه أبو داود، رقم (٤٩٠٣).
٣- رواه التِّرمذي، رقم (٢٥١٠).
٤- رواه أبو داود، رقم (٤٠٩٠).
٥- رواه مسلم، رقم (١٤٧).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "لا يزال الرَّجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبَّارين، فيصيبه ما أصابهم"[١].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: يقولون فِيَّ التِّيْهُ[٢]؛ وقد ركبتُ الحمار، وحَلَبْتُ الشَّاة، ولبستُ الشَّمْلَة[٣]، وقد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "من فعل هذا فليس فيه شيء من الكِبر"[٤].

٣- الحرص: في الكتاب: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك}، (الإسراء: ٢٩).

وفي السُّنَّة: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "يَهْرَمُ ابن آدم وتَشِبُّ منه اثنتان: الحِرص على المال، والحرِص على العُمُر"[٥].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التُّراب، ويتوب الله على من تاب"[٦].

٤- الغضب: في الكتاب: {والكاظمين الغيظ والعافين عن النَّاس}، (آل عمران: ١٣٤).

وفي السُّنَّة: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "ما تَعُدُّون الصُّرَعَةَ فيكم؟"، قالوا: الذي لا يصرعه الرِّجال، قال: "لا، ولكنَّه الذي يملك نفسه عند الغضب"[٧].

وعن أبي وائل قال: دَخَلْنَا على عروة بن محمد السَّعدي، فكلَّمه رجل فأغضبه، فقام فتوضَّأ ثمَّ رجع وقد توضَّأ، فقال: حدَّثني أبي، عن جدِّي عطيَّة، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إنَّ الغضب من الشَّيطان، وإنَّ الشَّيطان خُلق من النَّار، وإنَّما تطفأ النَّار بالماء، فإذا غضبَ أَحَدُكُم فليتوضَّأ"[٨].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: اسْتَبَّ رجلان عند النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم حتى عُرِفَ الغضب في وجه أحدهما، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "إِنِّي لأعلم كلمة لو قالها لذهب غضبه: أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم"[٩].

١- رواه التِّرمذي، رقم (٢٠٠٠). ومعنى يذهب بنفسه: أي يترفَّع ويتكبَّر.
٢- أي يقولون في نفسي الكِبر.
٣- كساء يُتغطَّى به ويُتلفَّف فيه.
٤- المستدرك للحاكم، رقم (٧٣٧٣)، ورواه التِّرمذي، رقم (٢٠٠١).
٥- رواه مسلم، رقم (١٠٤٧).
٦- رواه مسلم، رقم (١٠٤٨).
٧- رواه أبو داود، رقم (٤٧٧٩)، ورواه غيره.
٨- رواه أبو داود، رقم (٤٧٨٤).
٩- رواه التِّرمذي، رقم (٣٤٥٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال: علِّمني شيئاً ولا تُكْثِر عليَّ لعلِّي أَعِيْهِ، قال: "لا تغضب"، فردَّد ذلك مراراً كُلُّ ذلك يقول: "لا تغضب"[1].

٥- النِّفاق: في الكتاب: {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً}، (البقرة: ١٠). {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم}، (البقرة: ١٤). {مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء}، (النِّساء: ١٤٣).

وفي السُّنَّة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "تجدون من شرِّ النَّاس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه"[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "يخرج في آخر الزَّمان رجال يَخْتِلُونَ الدُّنيا بالدِّين[3]، يلبسون للنَّاس جلود الضَّأن من اللِّين، ألسنتهم أحلى من السُّكَّر، وقلوبهم قلوب الذِّئاب، يقول الله عزَّ وجلَّ: أبي يغترُّون، أم عليَّ يجترئون؟ فَبِي حلفتُ لأبعثنَّ على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيراناً"[4].

٦- الرِّياء: في الكتاب: {فمن كان يرجو لقاء ربِّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً}، (الكهف: ١١٠).

وفي السُّنَّة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حدّثني رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن أول من تسعَّر بهم النَّار: "... رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلِّمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يارب. قال: فماذا عمِلت فيما علِمت؟ قال: كنت أقوم به آناء اللّيل وآناء النّهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إنَّ فلاناً قارئ فقد قيل ذاك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسِّع عليك حتى لم أَدَعْكَ تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يارب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرَّحم وأتصدَّق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذاك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: في ماذا قُتِلْتَ؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قُتلت، فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذاك"، ثمَّ ضرب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على ركبتي فقال: "يا أبا هريرة، أولئك الثَّلاثة أوَّل خلق الله تعالى تسعَّر بهم النَّار يوم القيامة".

---

١ رواه التِّرمذي، رقم (٢٠٢٠).

٢- رواه مسلم، رقم (٢٥٢٦)، ورواه غيره.

٣- يخادعون في طلبها بملابسة الأمور الدِّينيَّة والتدرُّع بلباسها رياء وسمعة.

٤- رواه التِّرمذي، رقم (٢٤٠٤).

فلمَّا أُخبر معاوية بهذا الحديث عن أبي هريرة قال: قد فُعل بهؤلاء هذا؛ فكيف لمن بقي من النَّاس، ثمَّ بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظُنَّ أنه هالك، ثمَّ أفاق ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله ...[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشِركه"[2].

ما يجب على الإنسان أن يتحلَّى به:

١- الخوف: في الكتاب: قال الله تعالى: {فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين}، (آل عمران: ١٧٥). {فلا تخشوهم واخشون}، (المائدة: ٣). {وإيّاي فارهبون}، (البقرة: ٤٠). {وهم من خشيته مشفقون}، (الأنبياء: ٢٨). {ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين}، (الأنبياء: ٩٠). {ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب}، (الرَّعد: ٢١). {ولمن خاف مقام ربه جنَّتان}، (الرَّحمن: ٤٦). {ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد}. (إبراهيم: ١٤).

في السُّنَّة: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: "اتَّقوا النَّار ولو بشِقِّ تمرة"[3].

وعن أنس رضي الله عنه عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً"[4].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم دخل على شابٍّ وهو في الموت، فقال: "كيف تجدك؟"، قال: والله يا رسول الله؛ إنِّي أرجو الله، وإنِّي أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه ممَّا يخاف"[5].

٢- التَّوكُّل: في الكتاب: قال الله تعالى: {وعلى الله فليتوكَّل المتوكِّلون}، (إبراهيم: ١٢). {حسبنا الله ونعم الوكيل}، (آل عمران: ١٧٣). {وعلى الله فتوكَّلوا إن كنتم مؤمنين}، (المائدة: ٢٣). {ومن يتوكَّل على الله فهو حسبه إنَّ الله بالغ أمره}، (الطَّلاق: ٣).

في السُّنَّة: في الصَّحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما في سؤال أصحابه له عن السَّبعين ألفاً يدخلون الجنَّة يرزقون فيها بغير حساب، في حديث طويل، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "هم الذين لا يكتَوون، ولا يسترقُون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون"، فقام عكاشة فقال: أُدعُ الله أن يجعلني منهم، قال: "أنت منهم"، قال:

١- رواه التِّرمذي، رقم (٢٣٨٢)، وغيره بألفاظ متقاربة.
٢- رواه مسلم، رقم (٢٩٨٥).
٣- رواه البخاري، رقم (١٤١٧)، ورواه مسلم، رقم (١٠١٦).
٤- رواه البخاري، رقم (١٠٤٤)، ورواه مسلم، رقم (٢٣٥٩).
٥- رواه التِّرمذي، رقم (٩٨٣).

فقام رجل فقال: يا نبيَّ الله، أُدعُ الله أن يجعلني منهم، قال: "سبقك بها عكاشة"[1].

٣- الرَّجاء: في الكتاب: قال الله تعالى: {يرجون رحمته ويخافون عذابه}، (الإسراء: ٥٧). {إنَّ رحمت الله قريب من المحسنين}، (الأعراف: ٥٦). {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنَّه هو الغفور الرَّحيم}، (الزُّمر: ٥٣). {إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، (النِّساء: ٤٨).

في السُّنَّة: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنَّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرَّحمة ما قنط من جنَّته أحد"[2].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: "لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظَّنَّ بالله عزَّ وجلَّ"[3].

٤- التَّوبة: في الكتاب: قال الله تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلكم تفلحون}، (النُّور: ٣١). {توبوا إلى الله توبة نصوحاً}، (التَّحريم: ٨). {وأنيبوا إلى ربّكم وأسلموا له}، (الزُّمر: ٥٤).

في السُّنَّة: عن أبي بُردة، عن الأَغَرِّ المُزَنِيِّ، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "إنَّه لَيُغَانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرَّة"[4].

٥- الثَّناء والشُّكر: في الكتاب: {لئن شكرتم لأزيدنَّكم}، (إبراهيم: ٧).

في السُّنَّة: عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "من صُنِعَ إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثَّناء"[5].

١- رواه مسلم، رقم (٢١٨).

٢- رواه مسلم، رقم (٢٧٥٥).

٣- رواه مسلم، رقم (٢٨٧٧).

٤- رواه مسلم، رقم (٢٧٠٢). قال ابن الجوزي: "معرفَة الله عزَّ وَجلَّ عِنْد الْعَارِف كلَّ لَحْظَة تزيد لما يستفيده من الْعلم بِهِ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ فِي صعُود دَائِم، فَكَأَن النَّبيَّ صلَّى الله عليه وَسلَّم كَانَ كلَّما ارْتقى عَن مقَام بِمَا يستفيده من الْعلم بالله عزَّ وَجلَّ حِين قَالَ لَهُ: {وَقل ربِّ زِدْنِي علماً} (طه: ١١٤)، يرى ذَلِك الَّذِي كَانَ فِيهِ نقصاً وغطاء، فيستغفر من الْحَالة الأولى، ومِن هذا الْمَعْنى قيل: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ ذنُوب المقرَّبين. هَذَا وَاقع وَقع لي.

ثمَّ رَأَيْت ابن عقيل قد ذكر مثل ذَلِك فقال: كانَ يترقَّى من حَال إلى حَال، فتصير الحالة الأولى بالإضافة إلى الثَّانية من التَّقصير كالذَّنب، فيقع الاستغفار لما يبدو له من عظمة الرَّبِّ، وتتلاشى الحال الأولى بما يتجدَّد من الحال الثَّانية". (كشف المشكل: ٢٣١/٤).

٥- رواه التِّرمذي، رقم (٢٠٣٥).

وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "من أعطي عطاء فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ به، ومن لم يجد فَلْيُثْنِ[1]، فإنَّ من أَثْنَى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلَّى بما لم يُعْطَهُ كان كلابِسِ ثوبيّ زُوْرٍ"[2].

وفي رواية أخرى للتِّرمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "من لا يَشْكُر النَّاس لا يَشْكُر الله"[3].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمَّا قَدِمَ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قوماً أَبْذَلَ من كَثِيْرٍ، ولا أحسنَ مواساةً من قليل، من قومٍ نَزَلْنَا بين أَظْهُرِهِمْ، لقد كَفَوْنَا المُؤْنَةَ وأشركونا في المَهْنَأِ، حتى لقد خِفنا أن يذهبوا بالأجر كلِّه. فقال النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم"[4].

٦- الصَّبر: في الكتاب: قال الله تعالى: {واستعينوا بالصَّبر والصَّلاة وإنَّها لكبيرة إلا على الخاشعين}، (البقرة: ٤٥). {وبشِّر الصَّابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}، (البقرة: ١٥٥-١٥٦).

في السُّنَّة: عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أتى على امرأة تبكي على صبيّ لها، فقال لها: "اتَّقي الله واصبري"، فقالت: وما تُبالي بمصيبتي. فلمَّا ذهب قيل لها: إنَّه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه، فلم تجد على بابه بَوَّابين، فقالت: يا رسول الله لم أعرفك، فقال: "إنَّما الصَّبر عند أوَّل صدمة"، أو قال: "عند أوَّل الصَّدمة"[5].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إنَّ الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذُهِبَ بصفيِّه من أهل الأرض، فصبر واحتسب وقال ما أَمَرَهُ الله بثواب دون الجنَّة"[6].

وعن يحيى بن وثَّاب رضي الله تعالى عنه، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "المؤمن الذي يخالط النَّاس، ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط النَّاس، ولا يصبر على أذاهم"[7].

١- أي من أعطي شيئاً، فليكن عارفاً حقَّه، فإن وجد مالاً فَلْيَجْزِ به، ومن لم يجد فليشكر.
٢- رواه التِّرمذي، رقم (٢٠٣٤)، وأبو داود، رقم (٤٨١٣).
٣- رواه التِّرمذي، رقم (١٩٥٤).
٤- رواه التِّرمذي، رقم (٢٤٨٧).
٥- رواه مسلم، رقم (١٥).
٦- السُّنن الكبرى للنَّسائي، رقم (٢٠١٠).
٧- رواه ابن ماجه، رقم (٤٠٣٢).

٧- الرِّضا: في الكتاب: قال الله تعالى: {رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربَّه}، (البيِّنة: ٨).

في السُّنَّة: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم «إنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرِّضَا، ومن سَخِطَ فله السَّخَط"[١].

٣- المعرفة:

١- أصل عناية القوم بالمعرفة يرجع إلى سببين اثنين كما مرّ: كون المعرفة فرض عين، وأنَّها الوظيفة بعد الخلق. ولنثبت ذلك من الكتاب وأقوال العلماء.

أ- في الكتاب: {فاعلم أنَّه لا إله إلا الله}، (محمَّد: ١٩). {وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون}، (الذَّاريات: ٥٦). وقد فسر أكثر العلماء العبادة في هذه الآية بالمعرفة، قال الخطيب الشَّربيني في تفسيرها فيما رواه عن مجاهد: "إلا ليعرفون". قال البغوي: "هذا أحسن لأنَّه لو لم يخلقهم لم يُعرف وجوده وتوحيده، بدليل قوله تعالى: {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله}، (الزُّخرف: ٨٧)"[٢].

وقال ابن كثير في تفسيره: قال ابن جُريج: "إلا ليعرفون"[٣]. وقال الخازن: "وقيل معناه إلا ليعرفوني، وهذا حسن لأنَّه لو لم يخلقهم لم يُعرف وجوده وتوحيده"[٤]. وقال الفخر الرَّازي: "وقيل: معناه إلا ليعرفوني"[٥]. وقال أبو السعود: "قال مجاهد – واختاره البغويّ – معناه: إلا ليعرفوه، ولعلَّ السِّر في التَّعبير عن المعرفة بالعبادة على طريقة إطلاق اسم السَّبب على المسبَّب، التَّنبيه على أن المعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى، لا ما يحصل بغيرها، كمعرفة الفلاسفة"[٦].

ب- في أقوال العلماء إجماع تامٌّ على وجوب المعرفة:

قال صاحب الجوهرة:

واجزم بأنَّ أوَّلاً ممَّا يجب ... معرفةٌ وفيهِ خُلْفٌ مُنْتَصِب

وقال في شرح هذا البيت: "أوَّل ما يجب معرفة الله تعالى، أي معرفة وجوب وجوده تعالى، ومعرفة وَحْدَتِهِ، وصانعيَّته للعالم، ومعرفة صفاته، وسائر أحكام الألوهيَّة". وعندما أشار إلى الاختلاف المنتصب: "إلا أنَّه لم يقع خلاف بين

١- رواه التِّرمذي، رقم (٢٣٩٦).
٢- السِّراج المنير: ١٠٠/٤.
٣- تفسير ابن كثير: ٤٢٥/٧.
٤- تفسير الخازن: ١٩٦/٤.
٥- تفسير الرَّازي: ١٩٧/٤.
٦- تفسير أبي السّعود: ١٤٥/٨.

المسلمين في وجوب معرفة الله تعالى، ولا في وجوب النَّظر الموصل إليها بقدر الطَّاقة البشريَّة"[1].

وقال في موضع آخر: "على ما سيأتي لكي يفهمنا أنَّ الخلاف لم يكن في وجوب المعرفة:

فكلُّ من كلِّف شرعاً وَجَبَا ... عليه أن يعرف ما قَدْ وَجَبَا
لله والجائــز والمُمْتَنِعَـا ... ومثلُ ذَا لرُسْلِهِ فاستَمِعَا"[2].

وقال الفخر الرَّازي: "مراتب أعمال المكلَّف ثلاثة: فأوَّلها: إزالة العقائد الفاسدة من القلب. وثانيها: استحضار معرفة الله بذاته وصفاته وأسمائه. وثالثها: الاشتغال بخدمته.

فالمرتبة الأولى هي المراد بالتَّزكية: {قد أفلح من تزكَّى}، (الأعلى: ١٤).

وثانيها: هي المراد بقوله: {وذكر اسم ربِّه}، (الأعلى: ١٥)، فإنَّ الذِّكر بالقلب ليس إلا المعرفة.

وثالثها: الخدمة، وهي المراد بقوله: {فصلَّى}، (الأعلى: ١٥)، فإنَّ الصَّلاة عبارة عن التَّواضع والخشوع، فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله تعالى وكبريائه، لا بدَّ وأن يظهر في جوارحه وأعضائه أثر الخضوع والخشوع"[3].

٢- عناصر المعرفة: قد علمنا أنَّ المعرفة عنصران: العقل كأساس، والذَّوق كبناء، فكلٌّ منهما متمِّم للآخر، ولا غنى لأحدهما عن صاحبه.

أمَّا وجوب المعرفة العقليَّة فقد اتَّضح أمامك، وأمَّا المعرفة الذَّوقيَّة الوجدانيَّة؛ فإليك دليلها وبيانها:

١- قال تعالى: {إنّما يخشى الله من عباده العلماء}، (فاطر: ٢١)، والمراد بالعلماء هنا العلماء بالله تعالى، بدليل قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : "فأنا والله أعلمكم بالله، وأتقاكم له"[4].

ومعروف أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان أشدَّ النَّاس على الإطلاق خشية لله عزَّ وجلَّ، فمعرفة الله عزَّ وجلَّ والعلم به شيء واحد، وكلَّما ازداد المؤمن بالله تعالى معرفة ازداد به علماً، وله سبحانه وتعالى خشية وحبَّاً وتعظيماً وإجلالاً، وكما أنَّ هناك علماء في الفقه، وعلماء في الكلام، هناك علماءُ بالله تعالى عارفون به.

قال الإمام الفخر الرَّازي في تقسيم العلماء: "قال بعض المحقِّقين: العلماء ثلاثة:

١- هداية المريد: ص٥٩.
٢- المرجع السَّابق: ص٤٧.
٣- تفسير الرَّازي ١٣٦/٣١.
٤- المستدرك للحاكم، رقم (١٧٤٢).

١- عالم بالله تعالى غير عالم بأمر الله تعالى.
٢- عالم بأمر الله تعالى غير عالم بالله تعالى.
٣- عالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى.

أمَّا الأوَّل: فهو عبد قد استولت المعرفة الإلهيَّة على قلبه فصار مستغرقاً بمشاهدة نور الجلال وصفات الكبرياء، فلا يتفرَّغ لتعلُّم علم الأحكام إلا ما لا بد منه. والثَّاني: هو الذي يكون عالماً بأمر الله تعالى، وغيرَ عالم بالله تعالى، وهو الذي عرف الحلال والحرام وحقائق الأحكام، لكنَّه لا يعرف أسرار جلال الله تعالى.

أمَّا العالم بالله تعالى وبأحكام الله تعالى فهو جالس على الحدِّ المشترك بين عَالَمِ المعقولات وعَالَمِ المحسوسات، فهو تارة مع الله بالحبِّ له، وتارة مع الخلق بالشَّفقة والرَّحمة، فإذا رجع من ربِّه إلى الخلق صار معهم كواحد منهم كأنَّه لا يعرف الله تعالى، وإذا خلا بربِّه مشتغلاً بذكره وخدمته فكأنَّه لا يعرف الخلق، فهذا سبيل المرسلين والصِّديقين، وهذا هو المراد بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: "سائل العلماء، وخالط الحكماء، وجالس الكُبراء"[1].

فالمراد من قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: سائل العلماء؛ العلماء بأمر الله تعالى غيرَ العالمين بالله تعالى، فأمر بمساءلتهم عند الحاجة إلى الاستفتاء منهم، وأما الحكماء فهم العالمون بالله تعالى الذين لا يعلمون أوامر الله تعالى، فأمر بمخالطتهم، وأمَّا الكُبراء؛ فهم العالمون بالله تعالى وبأحكام الله تعالى، فأمر بمجالستهم، لأنَّ في تلك المجالسة منافعَ الدُّنيا والآخرة.

ثمَّ قال شقيق البَلْخِيِّ: لكلِّ واحد من هؤلاء الثَّلاثة ثلاث علامات:

أمَّا العالم بأمر الله تعالى فله ثلاث علامات:

أن يكون ذاكراً باللِّسان دون القلب، وأن يكون خائفاً من الخلق دون الرَّب، وأن يستحي من النَّاس في الظَّاهر، ولا يستحي من الله تعالى في السِّرِّ.

وأمَّا العالم بالله تعالى: فإنَّه يكون ذاكراً خائفاً مستحياً؛ أمَّا الذِّكر فذكر القلب لا ذكر اللِّسان، وأمَّا الخوف فخوف الرِّياء لا خوف المعصية، وأمَّا الحياء فحياء ما يخطر على القلب لا حياء الظَّاهر.

وأما العالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى فله ستَّة أشياء: الثَّلاثة التي ذكرناها للعالم فقط، مع ثلاثة أخرى:

كونُهُ جالساً على الحدِّ المشترك بين عَالَمِ الغيب وعَالَمِ الشَّهادة، وكونُهُ معلِّماً للقسمين الأوَّلين، وكونُهُ بحيث يحتاج الفريقان الأوَّلان إليه، وهو يستغني عنهما.

١- رواه الطَّبراني في المعجم الكبير رقم (٣٢٣-٣٢٤).

ثمَّ قال: مَثَلُ العالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى كَمَثَلِ الشَّمس لا يزيدُ ولا ينقص، ومَثَلُ العالم بالله تعالى كمَثَلِ القمر يكمُلُ تارةً وينقص تارةً أخرى، ومثل العالم بأمر الله تعالى فقط، كمَثَلِ السِّراج، يَحْرِقُ نفسه ويضيء لغيره"[1].

وقال الشَّيخ ابن تيميَّة عليه رحمة الله تعالى: "وقد روي عن أبي حيَّان التَّميميّ أنَّه قال: العلماء ثلاثة: فعالم بالله تعالى ليس عالماً بأمر الله تعالى، وعالم بأمر الله تعالى ليس عالماً بالله تعالى، وعالم بالله تعالى عالم بأمر الله تعالى. فالعالم بالله تعالى هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله تعالى هو الذي يعلم أمره ونهيه.

وفي الصَّحيح عن النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: "والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله تعالى وأعلمكم بحدوده"[2].[3]

قال صدر الشَّريعة في التَّوضيح: "والفقه: معرفة النَّفس ما لها وما عليها، ويزاد: عملاً، لتخرج الاعتقاديات والوجدانيات، فيخرج الكلام والتّصوّف".

قال في الشَّرح: "ثمَّ ما لها وما عليها يتناول الاعتقاديات: كوجود الإيمان ونحوه. والوجدانيات: أي الأخلاق الباطنة، والملكات النَّفسانيَّة. والعمليَّات: كالصَّلاة والصَّوم والبيع ونحوها.

١- فمعرفة ما لها وما عليها من الاعتقاديات هي علم الكلام.

٢- ومعرفة ما لها وما عليها من الوجدانيات هي علم الأخلاق والتَّصوُّف، كالزُّهد، والصَّبر، والرِّضا، وحضور القلب في الصَّلاة، ونحو ذلك"[4].

والعلم بالله سبحانه وتعالى ومعرفته كناية عن زيادة الإيمان بالقلب، وقوة إشراق كلمة التَّوحيد في السِّرّ.

قال شارح الفقه الأكبر: "فإنَّ تفاوت نور كلمة التَّوحيد في قلوب أهلها لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، فمن النَّاس من نورها في قلبه كالشَّمس، ومنهم كالقمر، ومنهم كالكوكب الدُّريّ، ومنهم كالمِشْعَلِ العظيم، وآخر كالسِّراج الضَّعيف، لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: "وذلك أضعف الإيمان"[5]، وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: "المؤمن القويّ أحبّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف"[6].

١- تفسير الرَّازي: ٢/٤٠١.

٢- رواه مسلم، رقم (٧٩)، بلفظ: "والله، إنِّي لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلَمُكُم بما أتَّقي"، وفي الموطَّأ، رقم (٧٨٢): "والله إنِّي لأتقاكم لله وأعلَمُكُم بحدوده".

٣- كتاب الإيمان: ص٢١.

٤- التَّلويح على التَّوضيح: ١/١٦-١٧.

٥- رواه مسلم، رقم (٧٤).

٦- رواه مسلم، رقم (٣٤).

والقوَّة تشمل القوَّة الظَّاهريَّة العمليَّة، والقوَّة الباطنيَّة العلميَّة، وهو على منوال هذه الأنوار في الدُّنيا، تُظْهِرُ أنوار علومهم وأعمالهم وأحوالهم في العُقْبَى"[1].

لذلك نجد أنَّ علماء التَّوحيد من أهل الحقّ تكلَّموا على مراتب الإيمان، وأنَّ أعلاها وأسماها ما تكلَّم عنه الصُّوفيَّة في المعرفة الذَّوقيَّة الذي ظنَّه أكثر النَّاس أنَّه افتراء على الدِّين، أو تعنُّت وتأنُّق في غير موضعه، وأنَّ علماء الأمَّة لم تعرف هذا النَّوع من الإيمان، ولا هذه المراتب من المعرفة بالله والعلم به، ولكن قال البيجوريّ: "واعلم أنَّ الإيمان على خمسة أقسام:

١- إيمان عن تقليد؛ وهو الإيمان الناشئ عن الأخذ بقول الشَّيخ من غير دليل.

٢- إيمان عن علم؛ وهو الإيمان الناشئ عن معرفة العقائد بأدلَّتها.

٣- إيمان عن عيان؛ وهو الإيمان النَّاشئ عن مراقبة القلب لله تعالى، بحيث لا يغيب عنه طرفة عين.

٤- إيمان عن حق؛ وهو الإيمان النَّاشئ عن مشاهدة الله تعالى بالقلب.

٥- إيمان عن حقيقة؛ وهو الإيمان النَّاشئ من كونه لا يشهد إلا الله تعالى.

فالَّتقليد للعوامّ، والعلم لأصحاب الأدلَّة، والعيان لأهل المراقبة؛ ويسمى مقامَ المراقبة، والحقّ للعارفين؛ ويسمى مقامَ المشاهدة، والحقيقة للواقفين؛ ويسمى مقامَ الفناء، لأنهم يَفْنَوْنَ عن غير الله تعالى، ولا يشهدون إلا إيَّاه، وأمَّا حقيقة الحقيقة فهي للمرسلين، وقد منعنا الله تعالى من كشفها، فلا سبيل إلى بيانها"[2].

قال أبو السُّعود في تفسيره عند قوله تعالى: {إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين}، (الفاتحة: ٥): "وممَّا استأثر به هذا المقام الجليل من النُّكت الرَّائقة الدَّالَّة على تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى، لما أُجريَ عليه من النُّعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكمل تميُّز، وأتمَّ ظهور، بحيث تبدَّل خفاءُ الغَيبة بجلاء الحضور، فاستدعى استعمال صيغةِ الخطاب، والإيذانَ بأنَّ حقَّ التَّالي بعدما تأمَّل فيما سلف من تفرُّده تعالى بذاته الأقدس المستوجب للمعبوديَّة، وامتيازه بذاته عمَّا سواه بالكليَّة، واستبداده[3] بجلائل الصِّفات وأحكام الرُّبوبيَّة، المميِّزة له عن جميع أفراد العَالَمِين، وافتقار الكلِّ إليه في الذَّات والوجود، ابتداء وبقاء، على التَّفصيل الذي مرَّت إليه الاشارة.

وأن يرتقي من رتبة البرهان إلى طبقة العيان، وينتقل من عالم الغيبة إلى عالم الشُّهود، ويلاحظَ نفسه في حظائر القدس حاضراً في محاضر الأنس، كأنَّه واقف لدى مولاه، ماثل بين يديه، وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرع بالضَّراعة باب المناجاة، قائلاً: يا من هذه شؤون ذاته وصفاته، نخصُّك بالعبادة والاستعانة، فإنَّ

١- شرح الفقه الأكبر: ص١٤٧.

٢- حاشية الإمام البيجوري: ص٩٠.

٣- أي تفرُّدِهِ.

كلَّ ما سواك كائناً ما كان بمعزل من استحقاق الوجود، فضلاً عن استحقاق أن يعبد أو يستعان..."[1].

وقال البيضاوي: عند قوله تعالى {إيّاك نعبد وإيّاك نستعين}[2]: "ثمَّ إنَّه لمَّا ذكر الحقيق بالحمد، وَوُصِفَ بصفات عظام تميَّز بها عن سائر الذَّوات، وتعلَّق العلم بمعلوم معيَّن خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدلَّ على الاختصاص، وللتَّرقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشُّهود، فكأنَّ المعلوم صار عياناً، والمعقول مشاهداً، والغيبة حضوراً.

بنى أوَّل الكلام على ما هو مبادي حال العارف، من الذِّكر والفكر والتَّأمل في أسمائه، والنَّظر في آلائه، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه، وباهر سلطانه، ثمَّ قفَّى بما هو منتهى أمره، وهو أن يخوض لجَّة الوصول، ويصير من أهل المشاهدة، فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً، اللَّهم اجعلنا من الواصلين للعين دون السَّامعين للأثر".

ثمَّ قال: "فإنَّ العارف إنَّما يحقُّ وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس، وغاب عمَّا عداه، حتى إنَّه لا يلاحظ نفسه، ولا حالاً من أحوالها، إلا من حيث إنَّها ملاحظةٌ له ومنتسبة إليه، ولذلك فُضِّلَ ما حكى الله تعالى عن حبيبه حين قال: {لا تحزن إنَّ الله معنا}، على ما حكاه عن كليمه حين قال: {إنَّ معي ربي سيهدين}".

قال الفخر الرَّازي: عند قوله: "الصَّلاة معراج العارفين": "ولا يزال هذا التَّرقي والتَّصاعد حاصلاً كما قال تعالى: {وفوق كلِّ ذي علم عليم}، (يوسف: ٧٦)، إلى أن ينتهي الأمر إلى نور الأنوار، ومسبِّب الأسباب، ومبدأ الكلّ، وينبوع الرَّحمة، ومبدأ الخير، وهو الله تعالى، فثبت أنَّ عالم الأرواح هو عالم الغيب، وحضرة جلال الرُّبوبيَّة هي غيب الغيب، ولذلك قال عليه الصَّلاة والسَّلام: "إنَّ لله تعالى سبعين حجاباً من النُّور، لو كشفها لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه كلَّ ما أدرك البصر"[3].

وتقدير عدد تلك الحجب بالسَّبعين ممَّا لا يعرف إلا بنور النُّبوَّة، فقد ظهر بما ذكرنا أنَّ المعراج على قسمين: أوَّلهما: المعراج من عالم الشَّهادة إلى عالم الغيب، والثَّاني: المعراج من عالم الغيب إلى عالم غيب الغيب، وهذه كلمات برهانيَّة يقينيَّة حقيقيَّة"[4].

وقال ابن عابدين في حاشيَّته: "الحقيقة هي مشاهدة الرُّبوبيَّة بالقلب، ويقال: هي سرٌّ معنويٌّ لا حدَّ له ولا جهة، وهي والطَّريقة والشَّريعة متلازمة، لأنَّ الطَّريق إلى الله تعالى لها ظاهر وباطن، فظاهرها الشَّريعة والطَّريقة، وباطنها الحقيقة،

١- تفسير أبي السُّعود: ١٦/١.
٢- تفسير البيضاوي: ٢٩/١.
٣- روي بألفاظ متعدِّدة عند الدَّارمي، وأبي الشَّيخ، والسُّيوطيِّ وغيرهم.
٤- تفسير الرَّازي: ٢٣٣/١.

فبطون الحقيقة في الشَّريعة والطَّريقة كبطون الزُّبد في لَبَنِهِ لا يُظْفَرُ من اللَّبن بزبده بدون مَخْضِه، والمراد من الثَّلاثة إقامة العبودية على الوجه المراد من العبد"[1].

قال في المسامرة: "وقد ذكروا يعني الحنفية وموافقيهم في الجواب على الظَّواهر الدَّالة على قبول الزِّيادة، أنَّه أي الإيمان يتفاوت بإشراق نوره، أي بزيادة إشراقه في القلب وزيادة ثمَّراته، فإن كان زيادةُ إشراق نوره هو زيادة القوَّة والشدَّة فيه فلا خلاف في المعنى ... وإن كان زيادةُ إشراقه في القلب غيرَ زيادة القوَّة، فالخلاف ثابت.

ومن الخوارج – أي الأمور الخارجة عن ماهيَّة الإيمان – التي يثبت بها التَّفاوت في الإيمان، ما ذكره إمام الحرمين حيث قال في الإرشاد في جواب سؤال: النَّبيُّ يَفْضُلُ من عداه في الإيمان باستمرار مشاهدة الدَّليل الموجب للتَّصديق، واستمرار مشاهدة الجلال والكمال بعين البصيرة، بخلاف غيره، أي غير النَّبيِّ، حيث يعزب – أي يغيب – عنه ذلك تارة فلا يشهده، ويحضر أخرى فيشهده، فيثبت للنَّبيِّ وأكابر المؤمنين أعدادٌ من الإيمان لا يثبت لغيرهم إلا بعضها، فيكون إيمانهم لذلك أكثر"[2].

وهذه المراتب العليا من الإيمان التي ذكرها البيجوري، والرَّازي، وأبو السُّعود، والبيضاوي، هي المرادة بالمعرفة الذَّوقيَّة الوجدانيَّة، بعد إذ ترتفع عن رتبة إيمان التَّقليد، وإيمان الدَّليل والبرهان.

هذه المعرفة القلبيَّة التي تخالط بشاشَتُها الأرواح، ويعيش فيها الإنسان في نشوة أقرب، هي المرادة من حديث الإحسان: "أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك"[3]، وهي التي إذا نالها طَعِمَ طَعْمَ الإيمان.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طَعْمَ الإيمان، من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النَّار".

والمعروف أنَّ الحبَّ ليس شيئاً عقليَّاً فكريَّاً، وإنَّما هو عاطفة مشتعلة حجابها البُعد، وأمنيتها القُرْب ومكاشفة وجه المحبوب، فقد لا تذوق عَيْنَي المُحبِّ المَنَامَ، ولا يعرف بَدَنُهُ إلا الأسقام، ويهيم على وجهه كالمجنون لما فُتِنَ به من خصال محبوبه، هذا هو المُحِبّ، وتلك هي حاله، والحبُّ موازين صادقة.

١- حاشية ابن عابدين: ٢٣٩/٤.

٢- المسامرة: ٢١٩/٢-٢٢٠.

٣- رواه البخاري، رقم (٥٠).

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والنَّاس أجمعين"[١].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومَنَعَ لله، فقد استكمل الإيمان"[٢].

٣- مواطن المعرفة:

أ- الرُّوح: قال تعالى: {ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا}، (الإسراء: ٨٥). هذه هي الآية الوحيدة التي ذكرت الرُّوح في القرآن الكريم، والتي استدلَّ بها العلماء على أنَّ الرُّوح عالم مجهول لا يجوز البحث فيه، ولا الخوض فيه، مع أنَّ في المسألة تفصيل:

يقول صاحب الجوهرة:

ولا تّخُضْ في الرُّوح إذ ما وردا ... نصٌّ من الشَّارع لكن وُجدا

فأنت ترى في ظاهر هذا البيت نهي عن الخوض بها، لأنَّه لم يرد نصٌّ يفصِّل فيها حالها وحقيقتها، ولكنَّ هذا المذهب المختار يقابله مذهب أو رأي آخر يجيز البحث في الرُّوح، وقد نَقَلَ هذا أصحاب الإمام مالك رضي الله عنه، وعن النّووي من الشّافعية:

لمالك هي صورة كالجسد ... فحسبُك النَّصُّ بهذا السَّنَد

يقول شارح الجوهر: "والفرقة الثَّانية تكلَّمت فيها، وبحثت عن حقيقتها، قال النَّوويّ: وأصحُّ ما قيل فيها على هذه الطَّريقة ما قاله إمام الحرمين: أنَّها جسم لطيف شفَّاف حيٌّ لذاته، مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر. واحتجُّوا لهذا بوصفها بالهبوط والعروج والتّردد في البرزخ، وهذه الطَّريقة المرجوحة"[٣].

فدلَّ هذا على أنَّ النَّهي للتَّنزيه، يقول الشَّارح: "وإذا علمت النَّقل عن أهل السُّنَّة بالخوض في حقيقته، فحسبك – أي يكفيك – في أنَّ النَّهي للتَّنزيه خوض أهل مذهب مالك فيها"[٤].

لذلك قال الفخر الرَّازي في الرُّوح عند السُّؤال عن ماهيَّة الرُّوح، أو قِدَمِهَا وحدوثها، فأجاب: "أنَّه موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض ... بل هو جوهر بسيط مجرَّد لا يحدث إلا بمحدِث ... ولفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل، قال تعالى: {وما أمر فرعون برشيد}، (هود: ٩٧)، وقال: {فلمَّا جاء أمرنا}، (هود: ٦٦)، أي فِعْلُنَا، فقوله: قل الرُّوح من أمر ربي، أي فعل ربي ... وقوله: قل الرُّوح من أمر ربي

١- رواه البخاري، رقم (١٥).
٢- رواه أبو داود، رقم (٤٦٨١).
٣- إتحاف المريد: ص٥٣١.
٤- المرجع السَّابق: ص٥٣٣.

يدلُّ على أنَّهم سألوه أنَّ الرُّوح هل هي حادثة؟ فأجاب بأنَّها حادثة واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه"[1].

ب- القلب: ولقد تحدَّث القرآن عن القلب وصنَّفه إلى أصناف، ووصفه بصفات خاصَّة، وعلامات فارقة، وتكلَّم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن القلوب وبيَّن أنواعها كذلك، وإليك عرضاً موجزاً لأصناف القلوب في الكتاب والسُّنَّة وصفات كلٍّ:

١- أنواع القلوب: عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "القلوب أربعة: قلب أَجْرَدُ فيه مثل السِّراج يزهر، وقلب أغلَفُ مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفَّح، فأما القلب الأَجْرَدُ: فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف: فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس: فقلب المنافق، عَرَفَ، ثمَّ أنكر، وأما القلب المصفَّح: فقلب فيه إيمان ونفاق، فَمَثَلُ الإيمان فيه كَمَثَلِ البَقْلَةِ يَمُدُّها الماء الطَّيِّب، ومَثَلُ النِّفاق فيه كَمَثَلِ القُرحة يَمُدُّها القيح والدَّم، فأيُّ المَدَّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه"[2].

فأنت ترى أنَّ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم قسَّم القلوب إلى أربعة أقسام: ١- قلوب المؤمنين. ٢- قلوب الكافرين. ٣- قلوب المنافقين. ٤- قلوب الفاسقين (المؤمنين العصاة)، القلوب المصفَّحة.

٢- صفات قلوب المؤمنين: قال الفخر الرَّازي عند قوله تعالى: {ربّ اشرح لي صدري}[3]:

وقد أعطي قلب المؤمن تسع كرامات:

١-الحياة: {أَوَ مَنْ كان مَيْتَاً فأحييناه}، (الأنعام: ١٢٢).

٢-الشِّفاء: {ويشف صدور قوم مؤمنين}، (التَّوبة: ١٤).

٣-الطَّهارة: {أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتَّقوى}، (الحُجُرات: ٣).

٤-الهداية: {ومن يؤمن بالله يهد قلبه}، (التَّغابن: ١١).

٥-الكتابة: {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان}، (المجادلة: ٢٢).

٦-السَّكينة: {هو الذي أنزل السَّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً}، (الفتح: ٤).

٧-المحبَّة والزِّينة: {ولكنَّ الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم}، (الحُجُرات: ٧).

٨-الألفة: {وألَّف بين قلوبهم}، (الأنفال: ٦٣).

٩-الطُّمأنينة: {ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب}، (الرَّعد: ٢٨).

٣- مواصفات قلوب الكافرين:

١ - {وجعلنا قلوبهم قاسية}، (المائدة: ١٣).

١- تفسير الرَّازي: ٣٩٢/٢١.

٢- رواه أحمد، رقم (١١١٢٩).

٣- تفسير الرَّازي: ٣٨/٢٢. (بتصرُّف).

٢- {ثمَّ انصرفوا صرف الله قلوبهم}، (التَّوبة: ١٢٧).
٣- {في قلوبهم مرض}، (البقرة: ١٠).
٤- {فلمَّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، (الصَّفّ: ٥).
٥- {وجعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه}، (الأنعام: ٢٥).
٦- {ختم الله على قلوبهم}، (البقرة: ٧).
٧- {أم على قلوب أقفالها}، (محمَّد: ٢٤).
٨- {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}، (المطفِّفين: ١٤).
٩- {أولئك الذين طبع الله على قلوبهم}، (النَّحل: ١٦).

٤- صفات قلوب المنافقين: هي نفس صفات قلوب الكافرين، لأن الكافر والمنافق في الواقع شيء واحد، فقد اجتمعا على الكفر.

١- يقول عليه الصَّلاة والسَّلام فيما يرويه عنه أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: "إنَّ المنافقين هم الكافرون"[١].

٢- إلا أنَّ هؤلاء يزيدون على الكافرين بالرِّياء وإظهار خلاف ما يبطنون:

أ – {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنَّما نحن مستهزئون}، (البقرة: ١٤).

ب- {وإذا قاموا إلى الصَّلاة قاموا كُسالى}، (النِّساء: ١٤٢).

٥- صفات قلوب الفاسقين ونهايتها: القلب المصفَّح:

أ- يقول عليه الصَّلاة والسَّلام فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: "إنَّ المؤمن إذا أذنب كانت نُكْتَةٌ سوداء في قلبه، فإن تاب ونَزَعَ واستغفر، صُقِلَ قلبه، فإن زاد، زادت، فذلك الرَّان الذي ذكره الله في كتابه: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}"[٢].

ب- يقول عليه الصَّلاة والسَّلام فيما يرويه عنه حذيفة رضي الله تعالى عنه: "تُعرض الفتن على القلوب كالحصير، عوداً عوداً، فأيُّ قلب أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فيه نُكتة سوداء، وأيُّ قلب أنكرها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بيضاء، حتى تَصِيْرَ على قلبين، على أبيضَ مِثْلِ الصَّفَا، فلا تضرُّه فتنة ما دامت السَّماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادَّاً كالكُوز، مُجْخِيَّاً لا يعرف معروفاً، ولا يُنْكِرُ مُنكراً، إلا ما أُشْرِبَ من هواه"[٣].

٦- القسوة واللِّين في القلوب:

فأنت ترى أنَّ قلوب الكفَّار والمنافقين قاسيةٌ كما مرَّ معك في علامات وصفات قلوبهما.

١- {ثمَّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة}، (البقرة: ٧٤).
٢- {وجعلنا قلوبهم قاسية}، (المائدة: ١٣).

١- رواه ابن خزيمة، رقم (١٨٨٥).
٢- رواه ابن ماجه، رقم (٤٢٤٤).
٣- رواه مسلم، رقم (٢٣١).

ولكنَّ من القلوب ما هو ليِّن رقيق:
١- يقول عليه الصَّلاة والسَّلام فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: "أتاكم أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يـمَانٍ والحكمة يمانيَّة، والفخر والخُيلاء في أصحاب الإبل، والسَّكينة والوقار في أهل الغنم"[١].
٢- {ثمَّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله}، (الزُّمر: ٢٣).

- مراتب المعرفة[٢]:

١- (شهود وحدة الأفعال):

أ- في الكتاب: {ألم تر أنَّ الله أنزل من السَّماء ماء}، (الحجّ: ٦٣). {أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون}، (الواقعة: ٥٨-٥٩). {أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزَّارعون}، (الواقعة: ٦٣-٦٤). {فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم}، (الأنفال: ١٧).

ب- في السُّنَّة: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يوماً فقال: "يا غلام، إنِّي أُعلِّمُكَ كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَكَ، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء؛ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء؛ لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأقلام وجفَّت الصُّحف"[٣].

٢- (شهود أنوار الصِّفات):

أ- في الكتاب {وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى}، (الأنفال: ١٧).

ب- في السُّنَّة:

١- عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إنَّ الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مِمَّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه"[٤].

قال صاحب دليل الفالحين في شرح هذا الحديث: "قال بعض المحقِّقين: التَّحقيق أنَّ هذه الصَّيرورة مجاز أو كناية عن نصرة الله تعالى لعبده المتقرِّب إليه بما ذُكِر، وتأييده وإعانته له وتولِّيه في جميع أموره، حتى كأنَّه تعالى نزَّل نفسه من عبده منزلة الآلات والجوارحَ التي بها يُدْرِكُ ويستعين، ولذا جاء في رواية أخرى:

١- رواه البخاري، رقم (٤٣٨٨).
٢- سقطت من الرِّسالة العناوين الأربعة لمراتب المعرفة، وقد أضفتها اجتهاداً.
٣- رواه التِّرمذي، رقم (٢٥١٦).
٤- رواه البخاري، رقم (٦٥٠٢).

"فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي"[1]، أي أنا الذي أقدرته على هذه الأفعال وخلقتها فيه، فأنا الفاعل لذلك، لا أنَّه يخلق أفعال نفسه، أي سواء الجزئيات والكليَّات.

وهذا يَردُّ على المعتزلة في زعمهم أنَّ العبد يخلق أفعاله الجزئيات، وَزَعْمِ الحلوليَّة والاتِّحادية بقاء هذا الكلام على حقيقته، وأنَّه تعالى عين عبده، أو حالٌّ فيه ضلال وكفر إجماعاً.

وما وقع في عبارات بعض العارفين ممَّا يوهم ذلك، فليس مراداً لهم، وفهم ذلك منه من قُصُورِ فهم النَّاظر، وإلا فهم مطهَّرون من ذلك الاعتقاد الفاسد، كما طهَّرهم الله تعالى بكمال محبَّته من سائر المفاسد"[2].

وقال الفخر الرَّازي عند قوله تعالى: {أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف}، (الكهف: ٩): "قال النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم حكاية عن ربِّ العزَّة: "ما تقرَّب عبد إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت له سمعاً، وبصراً، ولساناً، وقلباً، ويداً، ورجلاً، بي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق، وبي يمشي". وهذا الخبر يدلُّ على أنَّه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله تعالى، ولا في بصرهم ولا في سائر أعضائهم، إذ لو بقي هناك نصيب لغير الله تعالى لما قال أنا سمعه وبصره"[3].

٢- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه كان يقول في دعائه: "اللَّهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً"[4].

قال صاحب هداية الباري: "ذلك النُّور مستعار الهداية المشرقة عليه من مطالع الفيض الإلهي، ومعنى طلب النُّور للقلب والأعضاء؛ أن تتحلَّى الصُّورة الباطنيَّة بضياء العرفان، والظَّاهرية بحلية طاعة وليِّ الإحسان.

سأل ذلك صلَّى الله عليه وسلَّم مع حصوله له لا محالة، ليزداد في تقلباته وتصرفاته نوراً على نور، وطلب تعميم ذلك الضِّياء في أقطاره كلِّها ليكون محاطاً به إحاطة شمول، ليدفع به ظلمات الملمَّات من سائر الجهات"[5].

٣- (الفناء عمَّا سوى الله تعالى):

أ- في الكتاب: {كلُّ شيء هالك إلا وجهه}، (القصص: ٨٨).

١- لم أقف على هذه الرِّواية فيما لديَّ من مراجع، ووجدت من ذكر أنَّ هذه الرِّواية ذكرها الحكيم التِّرمذي في نوادره بدون سند.

٢- دليل الفالحين: ٣١١/٢.

٣- تفسير الرَّازي: ٤٣٥/٢١.

٤- رواه البخاري، رقم (٦٣١٦).

٥- هداية الباري: ٧٤/١.

يقول الإمام الرَّازي عند شرح قوله تعالى: {ربِّ اشرح لي صدري}، (طه: ٢٥): "اعلم أنَّ معدن النُّور هو القلب، واشتغال الإنسان بالزَّوجة، والولد، والرَّغبة في مصاحبة النَّاس، والخوف من الأعداء، هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصَّدر.

فإذا قَوَّى الله تعالى بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق، وقلة فائدتهم في الدَّارين، صَغُرُوا في عينه، ولا شكَّ في أنَّهم من حيث هم عدم محض، على ما قال تعالى: {كلُّ شيء هالك إلا وجهه}، فلا يزال العبد يتأمَّل فيما سوى الله تعالى إلى أن يشاهد أنَّهم عدم محض، فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى، وإذا زال الحجاب امتلأ القلب من النُّور، فذلك هو انشراح الصَّدر"[١].

ثمَّ تابع الإمام قوله: "لو وُضِعَتْ كرة صافية من البِلَّور، فوقع عليها شعاع الشَّمس، فينعكس ذلك الشُّعاع إلى موضع معيَّن، فذلك الموضع الذي إليه تنعكس الشُّعاعات يحترق، فجميع الماهيَّات الممكنة كالبِلَّور الصَّافي الموضوع في مقابلة شمس القدس، ونور العظمة، ومَشْرِقِ الجلال.

فإذا وقع للقلب التفات إليها حصلت للقلب نسبة إليها بأسرها، فينعكس شعاع كبرياء الإلهية عن كلِّ واحد منها إلى القلب فيحترق القلب، ومعلوم أنَّه كلَّما كان المُحْرِقُ أكثر، كان الاحتراق أتمّ فقال: ربِّ اشرح لي صدري حتى أقوى على إدراك درجات الممكنات، فأصل إلى مقام الاحتراق بأنوار الجلال، وهذا هو المراد بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: "أرنا الأشياء كما هي"[٢]، فلمَّا شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال: "لا أحصي ثناء عليك"[٣]"[٤].

ثمَّ قال الفخر الرَّازي عند سورة الإخلاص: "اعلم أنَّ قوله: هو الله أحد، ألفاظ ثلاثة، وكلُّ واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطَّالبين، فالمقام الأوَّل: مقام المقرَّبين، وهو أعلى مقامات السَّائرين إلى الله تعالى، وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيَّات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي، فلا جَرَمَ ما رأوا موجوداً سوى الله تعالى، لأنَّ الحقَّ هو الذي لذاته يجب وجوده، وأمَّا ما عداه فممكن لذاته، والممكن لذاته إذا نُظِرَ إليه من حيث هو هو كان معدوماً، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحقِّ سبحانه.

١- تفسير الرَّازي: ٤١/٢٢.

٢- لم أجده فيما لديَّ من مراجع حديثيَّة. قال في صيد الخاطر (ص٣٣٢): "وأكثر النَّاس لا يرون الأشياء بعينها، فإنَّهم يرون الفاني كأنَّه باق، ولا يكادون يتخايلون زوال ما هم فيه، وإن علموا ذلك؛ إلا أنَّ عين الحسِّ مشغولة بالنَّظر إلى الحاضر، ألا ترى زوال اللَّذَّة، وبقاء إثمَّها؟! ولو رأى اللِّص قطع يده، هان عنده المسروق، فمن جمع الأموال، ولم ينفقها؛ فما رآها بعينها، إذ هي آلة لتحصيل الأغراض، لا تراد لذاتها، ومن رأى المعصية بعيني الشَّهوة، فما رآها، إذ فيها من العيوب ما شئت، ثمَّ ثمَّرتها عقوبة آجلة، وفضيحة عاجلة".

٣- رواه مسلم، رقم (٤٨٦).

٤- تفسير الرَّازي: ٤٢/٢٢.

وقوله: هو؛ إشارة مطلقة، والإشارة وإن كانت مطلقة إلا أنَّ المشار إليه لمَّا كان معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعيَّن، فلا جرم كان قولنا: هو؛ إشارة من هؤلاء المقرَّبين إلى الحقِّ سبحانه، فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى مميِّز، لأنَّ الافتقار إلى التمييز إنَّما يحصل حين حصل هناك موجودان، وقد بيَّنَّا أنَّ هؤلاء ما شاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط"[١].

ب- في السُّنَّة: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: "أصدق كلمة قالها الشَّاعر، كلمة لبيد: ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل"[٢]. قال صاحب هداية الباري عند هذا الحديث: "المراد بالبطلان الفناء"[٣].

ج- أقوال علماء التَّوحيد:

أ- قال الشَّيخ محمد الحنيفي الحلبي: "قوله:

وكلُّ ما جاز عليه العدم ... عليه قطعاً يستحيل القِدَم

هذه كبرى، قياس مطوي، الصغرى يدل عليها قوله: لكن به قام دليل العدم، وتقريره: العالم جائز عليه العدم، وكلُّ ما جاز عليه العدم يستحيل عليه القِدَم، ينتج: العالم يستحيل عليه القِدَم، فيكون حادثاً، وكلُّ حادث لا بدَّ له من مُحْدِث، فالعالم لا بدَّ له من مُحْدِث، لأنَّ الوجود ليس له من ذاته، وإلا لكان قديماً، وهو خلاف المفروض، وكلُّ ما ليس له الوجود من ذاته فلا بدَّ أن يكون وجوده من غيره"[٤].

ب- قال الشَّيخ محمَّد الهاشمي: "(العدم): الممكن المقابل للوجود الممكن، وهو الذي تعلَّق علم الله تعالى بوجوده. فهو موجود في العلم، معدوم فى العين، لأنَّه صنعة الصَّانع وأثر من آثار قدرته، فوجوده وعدمه سواء، لأنَّه من الممكنات المتقابلات التى تقدَّم ذكرها، وهذا العدم هو الذى يمكن انتقاله منه إلى الوجود الممكن أيضاً، فلذلك تعلَّقت قدرة الله تعالى بإبرازه منه إلى الوجود، أي بإخراجه من العدم الممكن إلى الوجود الممكن، لأنَّ القدرة والإرادة لا يتعلَّقان إلا بالممكنات.

وأمَّا العدم الذَّاتي الواجب لما سوى الله تعالى عقلاً ونقلاً، فلا يمكن للعبد خروجه منه، لأنَّه ضدُّ الوجود الذَّاتي الواجب لله تعالى عقلاً ونقلاً، ولا يتَّصف بهذا الوجود إلا الله تعالى وحده، ولا يمكن أن يشاركه فيه غيره، ولا يشمَّ رائحته"[٥].

ج- الشَّيخ ابن تيميَّة: و قد تقدَّم كلامه على هذه المرتبة[٦].

١- تفسير الرَّازي: ٣٦٠/٣٢.

٢- رواه البخاري، رقم (٣٨٤١).

٣- هداية الباري: ٦٢/١.

٤- المنهج السَّديد في شرح جوهرة التَّوحيد: ص١٤.

٥- شطرنج العارفين: ص٧٩.

٦- أنظر: ص٤٢ من هذا الكتاب، حيث تكلَّم على مثل ذلك في كتابه العبوديَّة ص١١٦.

وقد تكلَّم الإمام الرَّازى عن المراتب الثَّلاثة فقال: "لا شكَّ أنَّه تعالى يتجلَّى لعقول الخلق، إلا أنَّ لذلك التَّجلِّي ثلاث مراتب: فإنَّه في أوَّل الأمر يتجلَّى بأفعاله وآياته، وفي وسط الأمر يتجلَّى بصفاته، وفي آخر الأمر يتجلَّى بذاته"[١].

٤- (شهود أنوار الأسماء):

١- في الكتاب: قوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}، (الأعراف: ١٨٠). وقوله تعالى: {بالمؤمنين رؤوف رحيم}، (التَّوبة: ١٢٨).

قال الفخر الرَّازى عند هذه الآية: "إنَّ الأسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى، لأنَّ الموجود إمَّا واجب الوجود لذاته، وإمَّا ممكن لذاته، والواجب لذاته ليس إلا الواحد وهو الله سبحانه، وأمَّا ما سوى ذلك الواحد؛ فهو ممكن لذاته، وكلُّ ممكن لذاته فهو محتاج في ماهيَّته، وفي وجوده، وفي جميع صفاته الحقيقيَّة والإضافيَّة[٢] والسلبيَّة إلى تكوين الواجب لذاته، ولولاه لبقي على العدم المحض والسلب الصِّرف، فالله سبحانه كامل لذاته، وكمال كلِّ ما سواه فهو حاصل بجوده وإحسانه.

فكلُّ كمال وجلال وشرف، فهو له سبحانه بذاته ولذاته وفي ذاته، ولغيره على سبيل العارية، والذي لغيره من ذاته؛ فهو الفقر والحاجة والنُّقصان والعدم، فثبت بهذا البرهان البيِّن أنَّ الأسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى، والصِّفات الحسنى ليست إلا لله تعالى، وأنَّ كلَّ ما سواه، فهو غَرِقٌ في بحر الفناء والنُّقصان"[٣].

ب- في السُّنَّة: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنَّة"[٤].

قال صاحب هداية البارى عند هذا الحديث: "أحصاها: حفظها، وبه ورد، ولكن لا مجرَّد إحصاء، لأنَّه يستوي فيه البَّر والفاجر، بل الإحصاء النَّظري، وهو العلم بمعنى كلِّ اسم، والاستدلال عليه بأثره السَّاري في الوجود، أي من حفظها متفكِّراً فى مدلولاتها، معتبراً بمعانيها، عاملاً بمقتضاها، مقدِّساً لمسمَّاها، دخل الجنَّة مع الأوَّلين"[٥].

وقال الصَّنعائي في سبل السَّلام: "قوله: "من أحصاها "؛ اختلف العلماء في الإحصاء، فقال البخاريُّ وغيره من المحقِّقين: معناه حفظها وهو الظَّاهر، فإن إحدى الرِّوايتين مفسِّرة للأخرى.

وقال الخطَّابي: يحتمل وجوهاً: أحدها: أن يعدَّها حتى يستوفيها، بمعنى: أن لا يقتصر على بعضها، فيدعو الله بها كلِّها، ويثني عليه بجميعها، فيستوعب

١- تفسير الرَّازي: ٢٤٣/١.
٢- ما يطرأ على الذَّات.
٣- تفسير الرَّازي: ٤١٤/١٥.
٤- رواه البخاري، رقم (٢٧٣٦).
٥- هداية الباري: ١٣٥/١.

الموعود عليها من الثَّواب. وثانيها: المراد بالإحصاء الإطاقة، والمعنى: من أطاق القيام بحقِّ هذه الأسماء والعمل بمقتضاها، وهو أن يعتبر معانيها فَيُلْزِمَ نفسه بموجبها، فإذا قال الرَّزَّاق، وثق بالرِّزق، وكذا سائر الأسماء. ثالثها: المراد به الإحاطة بمعانيها.

وقيل: أحصاها عمل بها، فإذا قال: الحكيم، سلَّم لجميع أوامره، لأن جميعها على مقتضى الحكمة، وإذا قال: القدُّوس، استحضر كونه مقدَّساً منزَّهاً من جميع النَّقائص. واختاره أبو الوفاء ابن عقيل.

وقال ابن بطَّال: طريق العمل بها أنَّ ما كان يسوغ الاقتداء به؛ كالرَّحيم، والكريم، فيمرِّن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، وما كان يختصُّ به نفسه؛ كالجبَّار، والعظيم، فعلى العبد الإقرار بها والخضوع لها، وعدم التَّحلي بصفة منها، وما كان فيه معنى الوعد؛ يقف فيه عند الطَّمع والرَّغبة، وما كان فيه معنى الوعيد؛ يقف منه عند الخشية والرَّهبة.

ويؤيِّد هذا أنَّ حفظها لفظاً من دون عمل واتِّصاف، كحفظ القرآن من دون عمل لا ينفع، كما جاء: "يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم"[1]، ولكنَّ هذا الذي ذكرته لا يمنع من ثواب من قرأها سرداً، وإن كان متلبِّساً بمعصية، وإن كان ذلك مقام الكمال الذي لا يقوم به إلا أفراد من الرِّجال"[2].

١- جزء من حديث رواه البخاري، رقم (٣٣٤٤).

٢- سبل السَّلام: ٥٥٥/٢.

الطَّريق

١- طريق هؤلاء القوم المجاهدة: قد مرَّ بك في بحث الأخلاق فريضةُ التَّزكية ووجوبها، ولكن؛ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، والتَّزكية لا يمكن الوصول إليها إلا بالمجاهدة، فلذلك كانت المجاهدة واجبةٌ، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ – كما مرَّ بك من قبل – خلق الإنسان وخيَّره، فأخلاقه قابلة للتَّغيُّر والتَّبدُّل، وإلا لما صحَّ التَّكليف والأمر والنَّهي، قال تعالى: {ونفس وما سوَّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكَّاها * وقد خاب من دسَّاها}، (الشَّمس: ٧-١٠). وقال تعالى: {قد أفلح من تزكَّى * وذكر اسم ربه فصلَّى}، (الأعلى: ١٤-١٥).

فقد دلَّت الآيات القرآنيَّة على أنَّ السُبُلَ إلى الله تعالى ميسَّرة، حتى يعرفها الإنسان ويصل بها إلى تزكية نفسه: {فمن شاء اتَّخذ إلى ربه سبيلاً}، (الإنسان: ٢٩)، ولكن ليس كلُّ إنسان يهتدي السَّبيل إلا من سار في المجاهدة: {والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنَا}، (العنكبوت: ٦٩)، وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام: "المجاهد من جاهد نفسه لله"، أو قال: "في الله"[١].

والمجاهدة طريق إلى المعرفة والتَّزكية؛ أمَّا كونها طريقاً إلى التَّزكية فقد مرَّ بك: {قد أفلح من زكَّاها}، أي فعل فيها التَّزكية، وهذا الفعل لا يكون إلا ببذل الجهد للوصول إلى التخلِّي والتحلِّي.

لذلك أطاعت المزكِّيَ نَفْسُهُ في العبادات، ووافقته في الطَّاعات، أمَّا حملها على الخضوع في المجاهدات؛ فهو سرعان ما يقوم إلى الصَّلاة إذا سمع النِّداء: {قد أفلح من تزكَّى وذكر اسم ربِّه فصلَّى}، وإذا سَهَّلَتْ عليه التَّزكية القيام في الطَّاعة وصل إلى الخُلُقِ الحسن، حيث الأخلاق الحسنة مرادة من العبادات كما مرَّ معك في بحث الأخلاق.

وأمَّا كونها طريقاً إلى المعرفة؛ فيظهر لك ذلك من خلال الآيات التَّالية:

{والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا}، {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم}، (محمَّد: ١٧)، {لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التَّقوى منكم}، (الحجّ: ٣٧)، فهذه الآيات الثَّلاث جمعت الطَّريق: فالآية الثَّالثة بيَّنت أنّ الله تعالى يُنَالُ بالتَّقوى[٢]، والثَّانية بيَّنت أنَّ التَّقوى تكون بعد الهداية، والأولى بيَّنت أنَّ الهداية إنَّما تكون بالمجاهدة.

٢- فَرْضِيَّة هذه المجاهدة: ممَّا سبق تعرف فَرْضِيَّة المجاهدة، وأزيد شيئاً جديداً، وهو كما قال الخازن: "وقيل: المجاهدة الصَّبر على الطَّاعات ومخالفةِ الهوى. وقال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى. وقال الفضيل بن عياض: والذين جاهدوا في

١- مسند أحمد، رقم (٢٣٩٥١).

٢- أي تصل إلى الله تعالى بالتَّقوى.

طلب العلم لنهدينَّهم سبل العلم والعمل به. وعن ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينَّهم سبل ثوابنا"[1].

٣- المجاهدة: والمجاهدة تكون بمخالفة النَّفس، وبمخالفة الشَّيطان:

أ- أمَّا مجاهدة النَّفس: فقد قال تعالى: {وأمَّا من خاف مقام ربِّه ونهى النَّفس عن الهوى * فإنَّ الجنَّة هي المأوى}، (النَّازعات: ٤٠-٤١). {أرأيت من اتَّخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً}، (الفرقان: ٤٣).

فالنَّفس إذاً واجب نهيها عن هواها، وَرَدْعُهَا عن شهواتها، والذي لا يتغلَّب عليها فيردَّها ويردعها؛ ذلك هو العاجز في تعريف النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذ يقول: "والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله"[2].

والنَّفس إذا أرخيت لها حبال طاعة الهوى كانت آمرة وناهية ومشرِّعة، ومحلِّلة ومحرِّمة، وتلك من صفات الألوهيَّة التي لا تعطى إلا للرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فهوى النَّفس يجب أن لا يكون إلاهك، وإنَّما هواك بهوى الشَّرع، يقول عليه الصَّلاة والسَّلام: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"[3].

ب- وأمَّا مخالفة الشَّيطان: {ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشَّيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين}، (يس: ٦٠). {ومن يتَّخذ الشَّيطان وليَّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً}، (النِّساء: ١١٩). {من شرِّ الوسواس الخنَّاس * الذي يوسوس في صدور النَّاس * من الجنَّة والنَّاس}، (النَّاس: ٤-٦).

فالرَّبُّ عزَّ وجلَّ عهد إلينا أن لا نطيع الشَّيطان وقد ناصبنا العداوة، وأخرج أبوينا من الجنَّة، وإنَّنا إذا تولَّيناه من دون الرَّبِّ عزَّ وجلَّ كان ذلك هو الخسران المبين، ولقد تسلَّط هذا الشَّيطان علينا إذ يوسوس في صدورنا، فيجب أن نلتجأ إلى الله تعالى فراراً منه.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: خطَّ لنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يوماً خطَّاً، وقال: "هذا سبيل الله"، ثمَّ خطَّ خطوطاً عن يمين الخطِّ وعن شماله، ثمَّ قال: "هذه سُبُلٌ، على كلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه"، ثمَّ قرأ: {وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله}، (الأنعام: ١٥٣)، لتلك الخطوط[4].

٤- صفات النَّفس: ولقد تعرَّض القرآن للنَّفس الإنسانيَّة وبيَّن صفاتها، وكثيراً ما خاطبها وبيَّن مراتبها، قال تعالى: {ونفس وما سوَّاها * فألهمها فجورها وتقواها}،

١- تفسير الخازن: ٣٨٥/٣. أمَّا قول الحسن رضي الله تعالى عنه فلم أقف عليه في تفسير الخازن، وقد ذكره البغويُّ في تفسيره: ٢٥٦/٦.

٢- رواه التِّرمذي، رقم (٢٤٥٩).

٣- السُّنن الكبرى للبيهقي، رقم (٢٠٩).

٤- رواه أحمد، رقم (٤١٤٢)، ورواه الدَّارمي، رقم (٢٠٨).

(الشَّمس: ٧-٨). {إنّ النَّفس لأمَّارة بالسُّوء}، (يوسف: ٥٣). ({لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنَّفس اللَّوَّامة}، (القيامة: ١-٢). {يا أيَّتها النَّفس المطمئنَّة * ارجعي إلى ربِّك راضية مرضيَّة * فادخلي في عبادي * وادخلي جنَّتي}، (الفجر: ٢٧-٣٠).

فالنَّفس أُلهمت الفجور والتَّقوى، وأحطُّ النُّفوس درجة الأمَّارة بالسُّوء، فإذا قوي واعظ الله تعال فيها بالذِّكر والعبادة، أصبحت لوَّامة، تلوم صاحبها إذا أخطأ أو قصَّر، ولهذه النَّفس أهميتها وقدسيَّتها عند الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، ولذلك أقسم بها، وأمَّا النَّفس المطمئنَّة؛ فهي التي حازت درجة العبديَّة، فادخلي في عبادي.

٥- وساوس النَّفس، ووساوس الشَّيطان: أمَّا الشَّيطان: فله وسوسة ولمَّة وقول يقوله في نفس الإنسان، قال تعالى: { كمثل الشَّيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمَّا كفر قال إنِّي بريء منك}، (الحشر: ١٦). {وزيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم}، (النَّمل: ٢٤). {يعدهم ويمنِّيهم وما يعدهم الشَّيطان إلا غروراً}، (النِّساء: ١٢٠). {الذي يوسوس في صدور النَّاس * من الجنَّة والنَّاس}، (النَّاس: ٥-٦).

وأمَّا وساوس النَّفس: فالآيات التي مرَّت عليك تبيِّن لك طرفاً منها، فللنَّفس وسوسة، قال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه}، (ق: ١٦).

٦- خاطر المَلَكِ وخاطر الشيطان: ولقد بيَّن لنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بميزانه الدَّقيق علامات الخواطر المعادية والموالية للرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

أخرج التِّرمذي بحديثه الحسن، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "إنَّ للشَّيطان لمَّةً بابن آدم، وللمَلَكِ لمَّةً، فأمَّا لمَّةُ الشَّيطان، فإيعاد بالشَّرِّ وتكذيب بالحقِّ، وأمَّا لمَّةُ المَلَك، فإيعاد بالخير وتصديق بالحقِّ، فمن وجد ذلك فليعلم أنَّه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوَّذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم"[١].

قال الحسن: "إنَّما هما همَّان يجولان في القلب، همٌّ من الله تعالى، وهمٌّ من العدو، فرحم الله عبداً وقف عند همِّه، فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوِّه يجاهده"[٢].

٧- الإلهام: قال تعالى: {فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عنِّدنا وعلَّمناه من لدنَّا علماً}، (الكهف: ٦٥).

قال الإمام الغزالي: "مع أنَّ كلَّ علم من لدنه، ولكنَّ بعضها بوسائط تعليم الخلق، فلا يسمَّى ذلك علماً لَدُنِّيَّاً، بل اللَّدنِّي الذي ينفتح في سرِّ القلب من غير سبب مألوف من خارج، فهذه شواهد النَّقل، ولو جُمِعَ كلُّ ما ورد فيه من الآيات

١- رواه التِّرمذي، رقم (٢٩٨٨).

٢- قوت القلوب: ١/٢٠٠.

والأخبار والآثار لخرج عن الحصر، وأمَّا مشاهدة ذلك بالتَّجارب فذلك أيضاً خارج عن الحصر، وظهر ذلك على الصَّحابة والتَّابعين ... قال عمر رضي الله تعالى عنه في أثناء خطبته: "يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ"، إذ انكشف له أنَّ العدوَّ قد أشرف عليه فحذَّره لمعرفته ذلك، ثمَّ بلوغ صوته إليه؛ من جملة الكرامات العظيمة"[1].

قال الفخر الرَّازي عند هذه الآية: "قوله: {وعلَّمناه من لدنَّا علماً}؛ يفيد أنّ تلك العلومَ حصلت عنده من عند الله تعالى من غير واسطة، والصُّوفيَّة سمُّوا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللَّدنِّيَّة، وللشَّيخ أبي حامد الغزالي رسالة في إثبات العلوم اللَّدنِّيَّة، وأقول: تحقيق الكلام في هذا الباب أن نقول: إذا أدركنا أمراً من الأمور، وتصوَّرنا حقيقة من الحقائق، فإمَّا أن نحكم عليه بحكم وهو التَّصديق، أو لا نحكم؛ وهو التَّصوُّر، و كلُّ واحد من هذين القسمين؛ فإمَّا أن يكون نظرياً حاصلاً من غير كسب وطلب، وإمَّا أن يكون كسبياً".

ثمَّ قال: "النَّوع الثَّاني: أن يسعى الإنسان بواسطة الرِّياضات والمجاهدات في أن تصير القوى الحسيَّة والخياليَّة ضعيفة، فإذا ضعفت قويت القوَّة العقليَّة، وأشرقت الأنوار الإلهية في جوهر العقل، وحصلت المعارف، وكَمُلَتِ العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التَّفكُّر والتَّأمُّل، وهذا هو المسمَّى بالعلوم اللَّدنِّيَّة"[2].

٨- وسائل المجاهدة: وسائل المجاهدة الذِّكر والعبادة.

الذِّكر وسيلة إلى المعرفة والتَّزكية، والعبادة وسيلة إلى المعرفة والتَّزكية، وفي الحقيقة، وإن كان الذِّكر من العبادة؛ ولكنَّه في واقع الأمر طريق مستقلٌّ في نفسه إلى معرفة الله تعالى وتزكية النَّفس، لذلك كان أساسُ السَّير في الطَّريق إلى الله عزَّ وجلَّ، فطريق بلا ذكر، أو وصول بلا ذكر، مستحيل على الغالب، والعبادة موصلة إلى المعرفة والتَّزكية كذلك، ولكنَّها كطريق مستقلٍّ عن الذِّكر جِدُّ بعيدة، وإن قلنا بإمكان الوصول عن طريقها، أمَّا كون العبادة موصلةٌ إلى التَّزكية فقد مرَّ معك هذا البحث في الأخلاق وكونِها مقصودةً من العبادات[3].

وأمَّا كون العبادة موصلةً إلى المعرفة، بل إلى أعلى مراتبها، فواضح ذلك في قوله تعالى: {يا أيُّها النَّاس اعبدوا ربَّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلَّكم تتقون}، (البقرة: ٢١). والتَّقوى لا تكون إلا بعد المعرفة.

١- إحياء علوم الدِّين: ٢٥/٣.
٢- تفسير الرَّازي: ٤٨٢/٢١.
٣- طالع الصَّفحة (٢٠).

الـذِّكر

١- لقد أَمَرَنَا الرَّبُّ عزَّ وجلَّ بالذِّكر كثيراً: قال تعالى: {يا أيُّها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبِّحوه بكرةً وأصيلاً}، (الأحزاب: ٤١-٤٢). وقال تعالى: {فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً}، (البقرة: ٢٠٠). وقال تعالى: {فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم}، (البقرة: ١٩٨). وقال تعالى: (فإذا قضيتم الصَّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم}، (النِّساء: ١٠٣). وقال تعالى: {واذكر ربَّك في نفسك تضرُّعاً وخِيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين}، (الأعراف: ٢٠٥).

٢- وبيَّن لنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فوائد الإكثار من الذِّكر، وحثَّنا كذلك على المداومة عليه: قال عليه الصَّلاة والسَّلام فيما يرويه عنه أبو الدَّرداء رضي الله عنه: "ألا أنبِّئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأَرْفَعِهَا في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إعطاء الذَّهب والوَرِقِ، وأن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟"، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: "ذكر الله عزَّ وجلَّ". وقال معاذ بن جبل: "ما عمل آدميٌّ من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عزَّ وجلَّ"(١).

وعن عبدالله بن بُسر رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أَتَشَبَّثُ به، قال: "لا يزال لسانك رطباً من ذِكْرِ الله"(٢).

وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: "أن تموت ولسانك رطب من ذِكْرِ الله"(٣).

وعن جابر رضي الله عنه رفعه إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "ما عمل آدميٌّ عملاً أنجى من العذاب من ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ"، قيل: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: "ولا الجهاد في سبيل الله، إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع"(٤).

وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "مثل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه، مثل الحيِّ والميِّت"(٥).

١- رواه الحاكم، رقم (١٨٢٥)، ورواه أحمد والتِّرمذي.
٢- رواه التِّرمذي، رقم (٣٣٧٥).
٣- رواه الطَّبراني، رقم (١٨١).
٤- رواه الطَّبراني، رقم (٢٠٩).
٥- رواه البخاري، رقم (٦٤٠٧).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "لو أنَّ رَجُلاً في حِجْرِهِ دراهمَ يقسِّمها، وآخر يذكر الله، كان الذَّاكر لله أفضل"[١].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "ليس يتحسَّر أهل الجنَّة إلا على ساعة مرَّت بهم لم يذكروا الله فيها"[٢].

وعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "يقول الرَّبُّ عزَّ وجلَّ: سيعلم أهل الجمع اليومَ من أهل الكرم"، فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال: "أهل الذِّكر في المساجد"[٣].

وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السَّماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلَتْ سيِّئاتكم حسنات"[٤].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قلت يا رسول الله: "ما غنيمة مجالس الذِّكر؟ قال: "غنيمة مجالس الذِّكر الجنَّة"[٥].

وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: "يا أيُّها النَّاس، إنَّ لله سرايا من الملائكة تَحِلُّ وتقف على مجالس الذِّكر في الأرض، فارتعوا في رياض الجنَّة"، قالوا: وأين رياض الجنَّة؟ قال: "مجالس الذِّكر، فاغدُوا ورُوحُوا في ذكر الله، وذَكِّرُوهُ أنفسكم، من كان يحبُّ أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف مَنْزِلَةُ الله عنده، فإنَّ الله تعالى يُنْزِلُ العبد منه حيث أنزله من نفسه"[٦].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: "لا يقعد قوم يذكرون الله عزَّ وجلَّ إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرَّحمة، ونزلت عليهم السَّكينة، وذكرهم الله فيمن عنده"[٧].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: "ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه، ولم يصلُّوا على نبيِّهم، إلا كان عليهم تِرَةً، فإن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم"[٨].

١- رواه الطَّبراني، رقم (٥٩٦٩).
٢- رواه الطَّبراني، رقم (١٨٢).
٣- رواه أحمد، رقم (١١٧٢٢).
٤- رواه أحمد، رقم (١٢٤٥٣).
٥- رواه أحمد، رقم (٦٧٧٧).
٦- رواه الحاكم، رقم (١٨٢٠)، والطَّبراني وغيرهما.
٧- رواه مسلم، رقم (٣٩).
٨- رواه التِّرمذي، رقم (٣٣٨٠). والتِّرَةُ: الحسرة والنَّدامة.

٣- فوائد الذِّكر وثمَّرته:

أمَّا فوائد الذِّكر وثِمَّاره التي تقطف منه فكثيرة وافرة، لا تجدها في غيره من العبادات، لذلك شرعه الله تعالى لنا في كلِّ الأحوال والأحيان، ولم يحصره بكيفيَّة ولا كميَّة ولا هيئة معيَّنة، فقد كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يذكر الله تعال على كلِّ أحيانه.

وكلُّ ما نُقِلَ من فوائد الذِّكر وثمراته عن ابن عطاء الله رحمه الله تعالى، مؤيَّد بالآثار والآيات التي يطول البحث لو أردنا حشرها كأدِلَّة على كلِّ ثَمَرة وفائدة، فأكتفي بأن أحيل القارئ إلى كتاب التَّرغيب والتَّرهيب، ليرى في المجلَّد الثَّاني في بحث الذِّكر الأدلَّة الوافية لكلِّ ما ذكره ابن عطاء الله رحمه الله تعالى.

٤- المداومة على الذِّكر:

ولأهمِّيَّة الذِّكر تَلْزَمُ المداومة عليه في كلِّ مكان، وقد مرَّ بك: "لا يزال لسانك رطباً من ذِكْرِ الله". و: "إلا كان عليهم تِرَةً يوم القيامة".

٥- الذِّكر هو الطَّريق:

الذِّكر هو طريق الوصول إلى التَّزكية (تزكية النَّفس)، وهو طريق الوصول إلى المعرفة (معرفة الله تعالى)، و لنبرهن على ذلك من وجهين:

الوجه الأوَّل: أمَّا كونه طريقاً إلى التَّزكية: فبما أنَّ الذَّاكر جليس الرَّبِّ عزَّ وجلَّ: "أنا جليس من ذَكَرَنِي"[١]، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ معه: "أنا مع عبدي إذا هو ذَكَرَنِي، وتحرَّكت بي شفتاه"[٢]، فهو في تجلٍّ دائم، وحضور مستمرٍّ، وهل هناك جليس أكرمَ في الوجود من الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؟.

وإذا كنت أيُّها الإنسان تشقى أو تسعد من مجالسة إنسان بما يشركك من طباع أو أخلاق سيِّئة أو حسنة، فكيف بذاكر الرَّبِّ عزَّ وجلَّ باسمه المفرد (الله)، إذ يتجلَّى عليه الرَّبُّ عزَّ وجلَّ بجميل أسمائه، ويُدخله حضراتها، فيأخذ منها النَّصيب الأوفى، وللعبد من كلِّ اسم من أسماء الله تعالى نصيب.

فإذا هو استمرَّ في ذكر ربِّه وحرص على كثرة مجالسته، أفضى عليه الله تعالى من أخلاقه، وبهذا المعنى قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: "تخلَّقوا بأخلاق الله"[٣]، الذي يؤيِّده قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: "إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من

١- عن كعب رضي الله تعالى عنه قال: "قال موسى: أي ربِّ أقريب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟ قال: يا موسى؛ أنا جليس من ذَكَرَنِي". (مصنَّف ابن أبي شيبة، رقم (١٢٢٤)، وشعب الإيمان للبيهقي، رقم (٦٧٠)، وحلية الأولياء: ٤٢/٦)).

٢- رواه البخاري وغيره.

٣- لم أقف عليه فيما لديَّ من مراجع حديثيَّة، وقد ذكره السُّيوطي، والغزالي وغيرهم كثير دون عزو.

أحصاها دخل الجنَّة"، أي من تحقَّق بها على ما مرَّ من تفسير ذلك في بحث الأسماء[1].

وللإمام الغزالي كتاب مستقلٌّ في هذا الموضوع اسمه: (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى)، يبيِّن فيه مراتبَ العباد في معرفة الله تعالى، ونصيبَهُم من كلِّ اسم من أسمائه، والأسماء التي يمكن أن يأخذ الإنسان منها حظاً، والتي ليس له فيها أيُّ حظٍّ، فإذا كان العبد من أهل الذِّكر والأوراد، كان دائماً وأبداً في حالة تخلية وتحلية، حتى تكمل أخلاقه، وتحسن أعماله، وتفرغ أكداره، فيكون من المزكِّين.

وأمَّا كونه طريقاً للمعرفة: فبنفس التَّعليل السَّابق، فبكثرة المجالسة تتَّضح الصِّفات، وتتجلَّى الأسماء، وتزداد بكثرة الصُّحبة المعرفة[2]، ولا يزال العبد يترقَّى في مراتبها ومدارجها، حتى يصل إلى أعلاها مرتبة كما مرَّ معك في بحث الأسماء نقلاً عن الغزالي رحمه الله تعالى.

يقول الفخر الرَّازي عند تفسير قوله تعالى: {الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب}، (الرَّعد: ٢٨): "واعلم أنَّ لنا في قوله: "ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب" أبحاثاً دقيقة غامضة، وهي من وجوه؛ الوجه الأوَّل: ... وأمَّا الموجود الذي يؤثِّر تارة ويتأثَّر أخرى؛ فهي الموجودات الرُّوحانية، وذلك لأنَّها إذا توجَّهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلة للآثار الفائضة من مشيئة الله تعالى، وقدرته وتكوينه وإيجاده.

وإذا توجَّهت إلى عالم الأجسام اشتاقت إلى التَّصرُّف فيها، لأنَّ عالم الأرواح مدبِّر لعالم الأجسام، وإذا عَرَفْتَ هذا؛ فالقلب كلَّما توجَّه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب، والقلق، والميلُ الشَّديد إلى الاستيلاء عليها، والتَّصرُّف فيها، أمَّا إذا توجَّه القلب إلى مطالعة الحضرة الإلهيَّة، حصل فيه أنوار الصَّمديَّة والأضواء الإلهيَّة، فهناك يكون ساكناً، فلهذا السَّبب قال: {ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب}.

الوجه الثَّاني: أنَّ القلب كلَّما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرفَ منها، لأنَّه لا سعادة في عالم الأجسام إلا وفوقها مرتبة أخرى في اللَّذة والغبطة، أمَّا إذا انتهى القلب والعقل إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأضواء الصَّمديَّة، بقي واستقرَّ، فلم يقدر على الانتقال منه ألبتَّة، لأنه ليس هناك درجة أخرى في السَّعادة أعلى منها وأكمل، فلهذا المعنى قال: {ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب}.

١- طالع صفحة (٨٩) من هذا الكتاب.

٢- أي مجالسة الحقِّ وكثرتها.

والوجه الثَّالث: أنَّ الإكسير إذا وقعت منه ذرَّة على الجسم النُّحاسي انقلب ذهباً باقياً على كَرِّ الدُّهور والأزمان، صابراً على الذَّوبان الحاصل بالنَّار، فإكسير جلال الله تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقلبه جوهراً باقياً صافياً نورانيَّاً، لا يقبل التَّغيير والتَّبدُّل، فلهذا قال: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب}[1].

ويقول الفخر الرَّازي عند قوله تعالى: {واذكر اسم ربِّك وتبتَّل إليه تبتيلا}، (المزَّمِّل: ٨): "هذه الآية تدلُّ على أنَّه تعالى أمر بشيئين: أحدهما: الذِّكر. والثَّاني: التَّبتُّل.

أمَّا الذِّكر: فاعلم أنَّه إنَّما قال: {واذكر اسم ربِّك} ها هنا، و قال في آية أخرى: {واذكر ربِّك في نفسك تضرُّعاً وخِيفة}، (الأعراف: ٢٠٥)، لأنَّه لا بدَّ في أوَّل الأمر من ذكر الاسم (الله) باللِّسان مدَّة، ثمَّ يزول الاسم ويبقى المسمَّى، فالدَّرجة الأولى هي المرادة بقوله ها هنا: {واذكر اسم ربِّك}.

والمرتبة الثَّانية: هي المرادة بقوله تعالى في السورة الأخرى: {واذكر ربَّك في نفسك}، وإنَّما تكون مشتغلاً بذكره إذا كنت في مقام مطالعة ربوبيَّته[2]، وربوبيَّته عبارة عن أنواع تربيته لك[3]، وإحسانه إليك، فما دمت في هذا المقام تكون مشغول القلب بمطالعة آلائه ونعمائه، فلا تكون مستغرق القلب به، وحينئذ يزداد التَّرقي فتصير مشتغلاً بذكر إلهيَّته، وإليه الإشارة بقوله: {فاذكروا الله كذكركم آبائكم}، (البقرة: ٢٠٠).

وفي هذا المقام يكون الإنسان في مقام الهيبة والخشية، لأنَّ الإلهيَّة إشارة إلى القهَّاريَّة والعزَّة والعلوِّ والصَّمديَّة، ولا يزال العبد يرقى في هذا المقام متردِّداً في مقامات الجلال والتَّنزيه والتَّقديس إلى أن ينتقل منها إلى مقام الهُويَّة الأحديَّة، التي كلَّت العبارات عن شرحها، وتقاصرت الإشارات عن الانتهاء إليها، وهناك الانتهاء إلى الواحد الحقِّ، ثمَّ يقف لأنَّه ليس هناك نظير في الصِّفات، حتى يحصل الانتقال من صفة إلى صفة.

ولا تكون الهُويَّة مركبَّة حتى ينتقل نظر العقل من جزء إلى جزء، ولا مناسبة لشيء من الأحوال المدركة عن النَّفس حتى تُعرف على سبيل المقايسة، فهي الظَّاهرة لأنَّها مبدأ ظهور كلِّ ظاهر، وهي الباطنة لأنَّها فوق عقول كلِّ المخلوقات، فسبحان من احتجب عن العقول لشدَّة ظهوره، واختفى عنها بكمال نوره"[4].

الوجه الثَّاني: يقول تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً}، (الأحزاب: ٢١).

١- تفسير الرَّازي: ١٩/٤٠.
٢- النَّظر في مظاهر الكون.
٣- أي بالتَّشريع.
٤- تفسير الرَّازي: ٣٠/٦٨٦.

نقول: بأنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم هو مجلى الكمالات كلِّها، ظاهرة وباطنة في معرفة الله الأكمل، وفي عبادته الأكمل، وفي محبَّته والإخلاص الأكمل، وفي الأخلاق الأكمل، وفي تصرُّفاته في كلِّ مجالات الحياة الأكمل، ليس في ذلك شكٌّ، ومن شكَّ فقد خرج عن المِلَّة، والله عزَّ وجلَّ طالب المسلمَ كمسلمٍ أن يتَّخذه أسوة وقدوة في كلِّ شيء، فذكر بصيغة الإخبار الذي يفيد الأمر: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}.

ولكنَّ الآية بعد ذلك خصَّصت الطِّراز من النَّاس الذي يتأسَّى بالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام تأسِّياً حقيقيَّاً، وذكرت صفات: أوَّلا: رجاءَ الله تعالى واليومِ الآخر. ثانياً: ذِكْرُ الله تعالى كثيراً.

وإذن فالطِّراز الوحيد الذي يتأسَّى برسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام هو الرَّاجي الذَّاكر، غير أنَّنا إذا دقَّقنا في الآية أكثر، وجدنا أنَّ كلمة (يرجو) كانت فعلاً مضارعاً، بينما (ذَكَرَ) كانت فعلاً ماضياً، فدلَّ هذا على أن الذِّكر قبل الرَّجاء وجوداً، بل الذِّكر هو طريق الرَّجاء، إذ به تحيا القلوب حتَّى ترجو، فالذِّكر إذن؛ هو الأوَّل في الطَّريق إلى الله تعالى، ليكون الإنسان كلُّه كأنَّه صورة مصغَّرة عن رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، غير أنَّه لا يوحى إليه.

ويعترض الكثير من النَّاس على الذِّكر بالاسم المفرد، ولا يجوِّزون الذِّكر به، بل يقولون بإثمَّ الذَّاكر له إذا لم يقرنه بتسبيح، أو تحميد، أو تكبير، وإنَّنا إذ نعتبر مسألة الذِّكر بهذا الاسم بَدَهِيَّة، وأنَّ اعتراض المعترضين إنَّما هو تعنُّت وتشدُّد، وأنَّ المانع يحتاج إلى دليل مثبت لحجَّته، ننقل رأي العلماء في الذِّكر بهذا الاسم عن حاشية ابن عابدين الحنفيِّ رحمه الله تعالى: "وروى هشام، عن محمَّد، عن أبي حنيفة أنَّه اسم الله الأعظم، وبه قال الطَّحاوي وكثير من العلماء، وأكثر العارفين، حتى أنَّه لا ذِكْرَ عندهم لصاحب مقام فوق الذِّكر به، كما في شرح التحرير لابن أمير حاجّ"[1].

١- حاشية ابن عابدين: ٧/١.

الشَّيخ (المرشد)

١- الصُّحبة: في الكتاب: لقد ذكر القرآن الكريم الصُّحبة، ولفت نظرنا السَّيِّد الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أهمِّيَّة البيئة، قال تعالى: {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم}، (الكهف: ٢٨). وقال تعالى: {يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله وكونوا مع الصَّادقين}، (التَّوبة: ١١٩). وقال تعالى: {واتَّبع سبيل من أناب إليّ}، (لقمان: ١٥).

فيجب على الإنسان ألا يتَّبع إلا سبيل المنيبين، وألا يكون إلا مع الصَّادقين، وأن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم وليسوا عنه بغافلين، وأظنُّك تعرف قصَّة ذلك الرَّجل الذي حدَّثنا عنه رسولنا صلَّى الله عليه وسلَّم إذ قتل تسعة وتسعين نفساً، ثمَّ أتمَّ المئة، ثمَّ أُمِرَ أخيراً أن يذهب إلى أرض فيها صالحون، ليعبد الله تعالى معهم، فكانت نهايته الجنَّة[١].

إذا لا بدَّ من بيئة صالحة، وصاحب ناصح اجتمعت فيه الإنابة، والصِّدق، وعدم الغفلة عن الله تعالى، ودوام ذكره.

٢- شروط المرشد: هذا الصَّاحب الصَّالح الصَّادق يسمِّيه القوم مرشداً، لأنَّه يرشد النَّاس إلى الطَّريق، ويعرِّف السَّبيل، ولقد جعلوا لإعطاء هذا اللَّقب علامات، واشترطوا لمنح هذا اللَّقب شرطاً مرَّ بنا عند بحث هذا الموضوع بالتَّفصيل في متن هذه الرِّسالة[٢]، ولكنَّني الآن سوف أدلِّل لبعض فقرات الموضوع التي تحتاج إلى دليل وبرهان:

أ- أمَّا العلم بالفرائض العينيَّة والعمل بها، فذلك بَدَهِيٌّ حتى يتميَّز المسلم عن غيره، ولسنا بحاجة لأن نكرِّر البرهان على وجوب هذه الفرائض العينيَّة، وكلُّها معلومة في أماكنها من المطوَّلات.

ب- وأمَّا كون المرشد من الضَّروري أن يكون عارفاً بالله تعالى، فذلك عمله وتلك مهمَّته، يجب أن يكون متحقِّقاً بعقيدة أهل السُّنَّة عقلاً وذوقاً، خبيراً بالرَّحمن، عارفاً به حقَّ المعرفة، قال تعالى: {الرَّحمن فاسأل به خبيراً}، (الفرقان: ٥٩)، أي عارفاً بالله تعالى.

١- عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: " كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً، ثمَّ خرج يسأل، فأتى راهباً فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائْتِ قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فَنَاءَ بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرَّحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تقرَّبي، وأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فَوُجِدَ إلى هذه أقرب بِشِبْرٍ، فغفر له". (رواه البخاري، رقم (٣٤٧٠)).

٢- طالع الصَّفحة (٥٥).

جـ- وشرط ثالث: هو أن يكون المرشد عارفاً بتزكية النَّفس، لأنَّ تلك هي مهمَّته كذلك، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام: {وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم}، (البقرة: ١٢٩).

فمن وظائف النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام إذاً تزكية نفوس أصحابه، ولئن كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بينهم واحتاجوا مع هذه الصُّحبة إلى التَّزكية، فلأن يحتاج غيرهم إلى تزكية نفوسهم أولى، ولا بدَّ للمزكِّي أن يكون مُزَكَّى.

والخلاصة: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان مربِّياً ومزكِّياً لأنفس الأمَّة، فكما كان مزكِّياً كذلك العلماء، وكما احتاج الصَّحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى مُرَبٍّ ومعلّم يجلو قلوبهم بنور التَّوحيد ويصل أرواحهم بالملأ الأعلى وينقلهم إلى عالم الغيب، كذلك نحتاج إلى مُزَكٍّ هو المرشد، من ورث الكتاب والسُّنَّة والمعرفة والتَّزكية.

٣- طريقة المرشدين في التَّربية:

١- الطَّريقة القوليَّة:

أ- الإرشاد بعد العمل، والتَّحقُّق بما يدعو إليه الدَّاعية:

قال تعالى: {يا أيُّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون}، (الصَّفّ: ٢)، وقال تعالى: {أتأمرون النَّاس بالبرِّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}، (البقرة: ٤٤).

وفي الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: "يؤتى بالرَّجل يوم القيامة، فيلقى في النَّار، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُ بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرَّحى، فيجتمع إليه أهل النَّار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه"[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "رأيت ليلة أُسري بي، رجالاً تُقرض شِفاههم بمقارض من نَّار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمَّتك، يأمرون النَّاس بالبرِّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون"[٢].

ب- إخلاص النِّيَّة شرط في قبول العمل:

قال الله تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدِّين حنفاء ويقيموا الصَّلاة ويؤتوا الزَّكاة وذلك دِين القيِّمة}، (البيِّنة: ٥).

١- رواه مسلم، رقم (٥١).

٢- رواه ابن حبَّان، رقم (٥٣)، والطَّبراني، رقم (٨٢٢٣).

وفي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: "إنَّما الأعمال بالنِّيَّة، وإنَّما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنياً يصيبها، أو امرأة يتزوَّجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"[١].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشِرْكَه"[٢].

جـ- التَّخوُّل بالموعظة، والتَّذكير عند نفع الذِّكرى:

قال تعالى: {فذكِّر إن نفعت الذِّكرى}، (الأعلى: ٩).

في السُّنَّة: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يتخوَّلنا بالموعظة في الأيَّام، كراهة السَّآمة علينا"[٣].

وعن عكرمة رضي الله تعالى عنه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "حدِّث النَّاس كلَّ جمعة مرَّة، فإن أبيت فمرَّتين، فإن أكثرت فثلاث مِرَارٍ، ولا تُمِلَّ النَّاس هذا القرآن، ولا أُلْفِيَنَّكَ تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فَتَقُصُّ عليهم، فتقطع عليهم حديثهم فَتُمِلُّهُم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهونه، فانظر السَّجع من الدُّعاء فاجتنبه، فإنِّي عهدت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك". يعني لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب[٤].

د- معرفة الاستعداد لقبول النَّصيحة، وأساليب جمع الفكر لإيجاد هذا الاستعداد:

"ولا أُلْفِيَنَّكَ تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فَتَقُصُّ عليهم، فتقطع عليهم حديثهم فَتُمِلُّهُم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهونه".

قال حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه: سألت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فأعطاني، ثمَّ سألته، فأعطاني، ثمَّ سألته، فأعطاني، ثمَّ قال: "يا حكيم، إنَّ هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السُّفلى"، قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أَرْزَأُ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدُّنيا.

فكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه، يدعو حكيماً إلى العطاء، فيأبى أن يقبله منه، ثمَّ إنَّ عمر رضي الله تعالى عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئاً، فقال

١- رواه البخاري، رقم (٦٦٨٩).
٢- رواه مسلم، رقم (٤٦).
٣- رواه البخاري، رقم (٦٨).
٤- رواه البخاري، رقم (٦٣٣٧).

عمر: "إنِّي أُشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أنِّي أعرض عليه حقَّه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه"، فلم يَرْزَأ حكيم أحداً من النَّاس بعد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى توفي[1].

هـ- لا بدَّ للمرشد من معرفة المستويات والمخاطبة على حسبها:

عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: "ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة"[2]. وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: "حدِّثوا النَّاس بما يعرفون، أتحبُّون أن يكذَّب الله ورسوله"[3].

و- الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لا يترك أبداً، لأنَّه علامة وجود الإيمان:

عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: "من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[4]. وعنه رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "من رأى منكراً فغيَّره بيده فقد برئ، ومن لم يستطع أن يغيِّره بيده، فغيَّره بلسانه فقد برئ، ومن لم يستطع أن يغيِّره بلسانه، فغيَّره بقلبه فقد برئ، وذلك أضعف الإيمان"[5].

قال ابن كثير عند قوله تعالى: {أتأمرون النَّاس بالبرِّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}: "والصَّحيح أنَّ العَالِمَ يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه. قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول له: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك: وصدق؛ من ذا الذي ليس فيه شيء؟"[6].

٢- طريقة التَّربية العمليَّة:

روى البخاري عن المِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ في حديثه عن صلح الحديبيَّة قال: "فلمَّا فرغ من قضيَّة الكتاب، قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابه: "قوموا فانحروا ثمَّ احلقوا"، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرَّات، فلمَّا لم يقم منهم أحد دخل على أمِّ سلمة، فذكر لها ما لقي من النَّاس، فقالت أم سلمة: يا نبيَّ الله، أتحبُّ ذلك، اخرج ثمَّ لا تكلِّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنَكَ، وتدعو حالقك فَيَحْلِقَكَ، فخرج فلم يكلِّم أحداً منهم حتى فعل ذلك،

١- رواه البخاري، رقم (١٤٧٢). ومعنى أزرأ: آخذ.
٢- رواه مسلم، رقم (٥).
٣- رواه البخاري، رقم (١٢٧).
٤- رواه مسلم، رقم (٧٨).
٥- رواه النَّسائي، رقم (٥٠٠٩).
٦- تفسير ابن كثير: ٢٤٧/١.

نَحَرَ بُدْنَهُ، ودعا حالقه فحلقه، فلمَّا رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غَمَّاً"[1].

٣- التَّربية بالتَّوجُّه (التَّربية الرُّوحيَّة):

عن أبيٍّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: "كنت في المسجد، فدخل رجل يصلِّي، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثمَّ دخل آخر فقرأ قراءة سِوى قراءة صاحبه، فلمَّا قضينا الصَّلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقلت: إنَّ هذا قرأ قراءة أنكرتُها عليه، ودخل آخر فقرأ سِوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقرآ، فحسَّن النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم شأنهما، فسقط في نفسي من التَّكذيب ولا إذ كنت في الجاهليَّة، فلمَّا رأى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ما قد غشيني، ضرب في صدري، فَفِضْتُ عرقاً، وكأنَّما أنظر إلى الله عزَّ وجلَّ فَرَقاً.

فقال لي: "يا أبيُّ؛ أُرسِل إليَّ أن اِقْرَأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوِّن على أمَّتي، فردَّ إليَّ الثَّانية اِقْرَأْهُ على حرفين، فرددت إليه أن هوِّن على أمَّتي، فرد إليَّ الثَّالثة اِقْرَأْهُ على سبعة أحرف، فلك بكلِّ رَدَّةٍ رددتُكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللَّهم اغفر لأمَّتي، اللهم اغفر لأمَّتي، وأخَّرت الثَّالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلُّهم، حتى إبراهيم صلَّى الله عليه وسلَّم"[2].

وعن حنظلة الأُسَيْدِيِّ رضي الله تعالى عنه قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله؛ ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، يذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، عَافَسْنَا الأزواج والأولاد والضَّيعات، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنَّا لنلقى مثل هذا.

فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "وما ذاك؟"، قلت: يا رسول الله؛ نكون عندك تذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عَافَسْنَا الأزواج والأولاد والضَّيعات، نسينا كثيراً، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكر، لصافحتكم الملائكة على فُرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعة". ثلاث مرَّات[3].

وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "مثل الجليس الصَّالح والجليس السُّوء، كمثل صاحب المسك وكِيْرِ الحدَّاد، لا

١- رواه البخاري، رقم (٢٧٣١).
٢- رواه مسلم، رقم (٢٧٣).
٣- رواه مسلم، رقم (١٢).

يَعْدَمُكَ من صاحب المسك إمَّا تشتريه، أو تجد ريحه، وكِيْرُ الحدَّاد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحاً خبيثة"[1].[2]

١- رواه البخاري، رقم (٢١٠١). ومعنى لاَ يَعْدَمُكَ: لا تفقد ولا يفوتك.

٢- هذا ما تيسَّر الوقوف عليه من هذه الرِّسالة المباركة، ويغلب على الظَّنِّ أنَّ مادَّتها العلميَّة أوسع من ذلك، ولكن؛ هذا ما أذن الله تعالى بالوقوف عليه منها، فله الحمد على كلِّ حال.

المراجع

١- إتحاف السادة المتقين، محبِّ الدِّين الزبيدي.
٢- إتحاف المريد شرح جوهرة التَّوحيد، عبد السلام اللَّقاني.
٣- إتمام الدِّراية لقرَّاء النِّقاية، جلال الدِّين السُّيوطي.
٤- إحياء علوم الدِّين، حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي.
٥- الأدب المفرد، الإمام البخاري.
٦- أعلام المسلمين (الشيخ عبدالقادر الجيلاني)، د. عبد الرزاق كيلاني.
٧- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، إسماعيل بن كثير الدمشقي.
٨- تفسير الخازن (لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل)، علاء الدِّين الشيحي المعروف بالخازن.
٩- تفسير الرازي (مفتاح الغيب)، محمد فخر الدِّين الرَّازي.
١٠- تفسير أبي السُّعود (إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، محمد العمادي أبو السُّعود.
١١- تفسير البيضاوي (أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل)، ناصر الدِّين عبد الله البيضاوي.
١٢- تفسير البغوي (معالم التَّنزيل في تفسير القرآن)، أبو محمد الحسين البغوي.
١٣- التَّصوُّف والإمام الشَّعراني، طه عبد الباقي سرور.
١٤- التَّعرُّف لمذهب أهل التَّصوُّف، أبو بكر محمد الكلابادي.
١٥- حاشية الشّنواني على إتحاف المريد شرح جوهرة التَّوحيد، محمد علي الشنواني.
١٦- حاشية الطَّحطاوي على الدُّرِّ المختار، أحمد بن محمد الطَّحطاوي.
١٧- حاشية البيجوري على جوهرة التَّوحيد، برهان الدِّين البيجوري.
١٨- حاشية ابن عابدين (ردُّ المحتار على الدُّرِّ المختار)، محمد أمين ابن عابدين.
١٩- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني.
٢٠- دليل الفالحين لطرق رياض الصَّالحين، محمد علي البكري الصِّديقي.
٢١- روضة الطَّالبين وعمدة السَّالكين، حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي.
٢٢- رجال الفكر و الدَّعوة في الإسلام، علي النَّدوي.
٢٣- الرِّسالة القشريَّة، عبد الكريم القشيري.
٢٤- سنن الإمام التِّرمذي.
٢٥- سنن الإمام أبي داود.
٢٦- سنن الإمام البيهقي.
٢٧- السُّنن الكبرى للإمام النَّسائي.

٢٨- سنن الإمام ابن ماجه.
٢٩- سنن الإمام الدَّارمي.
٣٠- السِّراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربِّنا الحكيم الخبير، شمس الدِّين الخطيب الشَّربيني.
٣١- سُبُل السَّلام، محمد بن إسماعيل الصَّنعاني.
٣٢- شرح شطرنج العارفين، محمد الهاشمي التِّلمساني.
٣٣- شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة، الملّا علي القاري.
٣٤- شعب الإيمان للإمام للبيهقي.
٣٥- صحيح الإمام البخاري.
٣٦- صحيح الإمام ابن خزيمة.
٣٧- صحيح الإمام ابن حبَّان.
٣٨- صحيح الإمام مسلم.
٣٩- صون المنطق والكلام، جلال الدِّين السّيوطي.
٤٠- صيد الخاطر، جمال الدِّين بن الجوزي.
٤١- طبقات الصُّوفيَّة، محمد النِّيسابوري السُّلمي.
٤٢- طبقات الشَّافعيَّة الكبرى، تاج الدِّين عبد الوهاب السُّبكي.
٤٣- عوارف المعارف، عمر بن محمد السَّهروردي.
٤٤- العبوديَّة، تقي الدِّين أحمد بن تيميَّة.
٤٥- قواعد زرُّوق (قواعد التَّصوُّف وشواهد التَّعرُّف)، أحمد زروُّق الفاسي.
٤٦- قوت القلوب، لأبي طالب المكِّي.
٤٧- كشف المشكل من حديث الصَّحيحين، جمال الدِّين بن الجوزي.
٤٨- كتاب الإيمان، تقي الدِّين أحمد بن تيميَّة.
٤٩- ميزان العمل، حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي.
٥٠- المنقذ من الضَّلال، حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي.
٥١- مفتاح الجنَّة، محمد الهاشمي التِّلمساني.
٥٢- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، زين الدِّين العراقي.
٥٣- مجموع الفتاوى، تقي الدِّين أحمد بن تيميَّة.
٥٤- معراج التَّشوُّف إلى حقائق التَّصوُّف، أحمد بن عجيبة.
٥٥- مصنف ابن أبي شيبة
٥٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
٥٧- معجم الإمام الطَّبراني.
٥٨- المستدرك للحاكم النِّيسابوري.
٥٩- مسند الإمام البزَّار.
٦٠- موطَّأ الإمام مالك.

٦١- المسامرة في شرح المسايرة، الكمال بن الهمام.
٦٢- المنهج السَّديد في شرح كفاية المريد، محمد بن يوسف السّنوسي.
٦٣- نور التَّحقيق في صحَّة أعمال الطَّريق، حامد صقر.
٦٤- الهديَّة العلائيَّة، محمد علاء الدِّين عابدين.
٦٥- هداية المريد شرح جوهرة التَّوحيد، إبراهيم اللَّقاني.
٦٦- هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري، عبد الرحيم الطَّهطاوي.
٦٧- الوصايا، الحارث المحاسبي.

الفهرس

الموضوع	الصَّفحة
إهداء المعتني بالرِّسالة	٢
تنويه بصاحب الرِّسالة	٣
مقدّمة المعتني بالرِّسالة	٥
الإهداء	٧
شكر	٨
مقدِّمة	٩
التَّصوُّف كما عرَّفه أصحابه	١٠
التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة	١٣
أصول الطَّريق	١٣
الكتاب والسُّنَّة هما الميزان	١٤
المحافظة على السُّنن	١٤
إسقاط التكاليف	١٥
الأخلاق	١٦
من أقوالهم في الأخلاق	١٦
عنايتهم بالأخلاق	١٧
قابليَّة الأخلاق للتَّبدُّل	١٨
التَّخلية والتَّحلية	٢٠
شهود على الطَّريق	٢٥
المعرفة	٢٨
عنايتهم بالمعرفة	٢٩
ما هي المعرفة؟	٣٠
عناصر المعرفة	٣١
ما مراد القوم من المعرفة؟	٣٢
العرفة العقليَّة مقياس المعرفة القلبيَّة	٣٣
آلة المعرفة	٣٤
الرُّوح	٣٦
القلب	٣٧
مراتب المعرفة	٣٧
الوحدة في الأفعال	٣٨
الوحدة في الصِّفات	٣٩

الوحدة في الذَّات ٣٩
الوحدة في الأسماء ٤٣
ركن هذا الطَّريق ٤٥
المجاهدة ٤٥
فريضة هذه المجاهدة ٤٦
صفات النَّفس ٤٧
شروط هذا الطَّريق ٤٨
الذِّكر ٤٩
الشِّيخ (المرشد) ٥٣
شروط الشَّيخ (المرشد) ٥٥
طريق التَّربية العمليَّة ٦١
طريقة التَّربية بالتوجيه الرُّوحي ٦٣
أصول هذه الأفكار في الكتاب والسُّنَّة ٦٤
الأخلاق ٦٥
ما يجب للإنسان أن يتخلَّى عنه ٦٩
ما يجب على الإنسان أن يتحلَّى به ٧٢
المعرفة ٧٥
عناصر المعرفة ٧٦
مواطن المعرفة ٨٢
مراتب المعرفة ٨٥
الطَّريق ٩١
الذِّكر ٩٥
الشَّيخ (المرشد) ١٠١
المراجع ١٠٧